بلاد الكرنفال

جورجي آمادو

ترجمة/ شحات صادق

منتدى مكتبة الاسكندرية

بلاد الكرنفال

الـكـتـــــــاب : بلاد الكرنڤال
رواية
الـــكـــاتـــب : چورچي آمادو
تـرجـــمـــة : شحات صادق
الـطـبــعـــة : الأولي ١٩٩٨ م
الـنـاشـــر : مكتبة مدبولي ـ ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة
ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤
رقـــم الإيـــداع : ٩٧/٧٨٦٦
التـــرقـيـم الدولي : ISBN 977 - 208 - 209 - 8 -

لوحـــة الغـــلاف : أحمد صفوت
الجـمـع الـتـصـويري والتنسيق الداخلي : دار جهاد ٢٦ ش إسماعيل أباظة – لاظوغلي
ت: ٣٥٦٤٧٨٣

چورچى آمادو

بلاد الكرنڤال

(روايــــة)

ترجمة: شحات صادق

الناشر
مكتبة مدبولى
١٩٩٨

آمادو الروائى والإنسان

هو أكبر كاتب برازيلى معاصر. وواحد من أشهر كتاب أمريكا اللاتينية وأكثرهم مبيعاً فى العالم (٣٠ مليون نسخة فى ٣٥ لغة). ورائد من رواد الواقعية المدهشة التى يطلق عليها البعض الواقعية السحرية. أسماء رواياته وأبطاله تطلق على المطاعم والحانات والشوارع وتستوحى فى المؤلفات الموسيقية. أغلب أعماله يتم اقتباسها للسينما والمسرح والتليفزيون.

عمل فى الصحافة مراهقاً لم يبلغ الخامسة عشرة. مارس العمل السياسى مناضلاً فى صفوف اليسار وانتخب نائباً بالبرلمان عن «سان باولو». تعرض للملاحقة وعرف السجن والمنفى. زار العديد من البلدان وأقام فى بعضها لفترات إبان حكم الدكتاتوريات البرازيلية. سافر إلى أمريكا وروسيا والصين وشيلى والأرجنتين وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا فكانت له صداقات مع الأدباء والفنانين فى هذه البلاد. حصل على أكبر الجوائز الأدبية فى بلاده ونال جائزة لينين فى الأدب فى ١٩٥١. انتخب عضواً بالأكاديمية البرازيلية للآداب فى ١٩٦١.

ولد «چورچى آمادو» فى ١٠ أغسطس ١٩١٢ فى جنوب ولاية «باهيا» بشمال شرق البرازيل. كان أبوه «چواو» أحد الملاك الصغار لمزارع الكاكاو فى وقت كانت المنطقة تعيش تحولات اقتصادية واجتماعية عنيفة؛ فالزراعات التقليدية لقصب السكر والبن تحل محلها زراعة الكاكاو الأوفر ربحاً. ولقد شهدت هذه التحولات صراعات دموية للاستيلاء على الأراضى كان أبوه يشارك فيها، وكانت هذه المنازعات تحسم بطلقات الرصاص أو طعنات الخناجر.
ويأتى فيضان نهر «كاشويرا» فى ١٩١٤ فيدمر الكثير من الزراعات ويفلس الأب فيؤسس تجارة صغيرة فى «إيلياوس» حيث يستقر مع أسرته ولكنه سرعان ما

يؤسس من جديد مزرعة للكاكاو فى ١٩١٧. فى هذه الفترة، وفى مرحلة الطفولة المبكرة تتفتح عينا «چورچى آمادو» على جو العنف والصراع على الأرض.

وعندما يبلغ سن العاشرة فى ١٩٢٢ يلحقه أبوه بالقسم الداخلى بمدرسة أنطونيوفييرا اليسوعية فى «سان سلفادور»، وهناك يقوم الراهب البرتغالى «لويس جونزاجا» بإرشاده إلى طريق الأدب البرتغالى الكلاسيكى والأدب الانجليزى الرومانتيكى، وهو الذى يكتشف مواهبه الأدبية المبكرة. ولكن «چورچى آمادو» يضيق بجو المدرسة ويحاول أن يهجر الدراسة.

وعند يبلغ «چورچى آمادو» الرابعة عشرة فى ١٩٢٦ يقوم بمغامرة سيكون لها تأثير كبير على حياته وأدبه. يهرب آمادو ويذهب إلى مزرعة جده فى ولاية «سيرچيب». ويجتاز عدة مئات من الكيلومترات سيراً على الأقدام، عبر الحقول فى «باهيا» ودون مليم فى جيبه فكان ينزل فى ضيافة الفلاحين وعبيد الأرض من الزنوج والخلاسيين. وفى ١٩٢٧، يلحقه أبوه من جديد بالقسم الداخلى لمدرسة «إيبيرانجا» فى «سلفادور» حيث جو المدرسة أكثر انفراجاً من سابقه. وهناك يساهم فى النشاطات الأدبية للمدرسة ويقرأ بنهم لكتاب البرازيل وكتاب أوربا. ويحدث فى ذلك الوقت أن تمتد «حركة الحداثة البرازيلية» إلى «سلفادور» فيشارك فيها آمادو بحماسة، وفى هذه الفترة أيضاً، يساهم بالكتابة فى عدة صحف منها «يوميات باهيا» و«الأسبوع»، و«منتصف النهار» و«اللحظة». وفى مدينة سلفادور يحيا حياة بوهيمية تتيح له أن يتعرف على قاع المدينة وأزقتها الخلفية ويعاشر أهلها عن قرب خاصة الصعاليك والمتشردين والحمالين والباعة المتجولين وباعة الفطائر والمأكولات الشعبية والمومسات...

وفى يونيه ١٩٣٠، بعد أن يتم دراسته الثانوية، يذهب إلى «ريو ديه چانيرو» استعداداً للالتحاق بالجامعة، ويكتب أولى رواياته «بلاد الكرنفال ».

وفى ١٩٣١ يلتحق بكلية الحقوق، وينضم إلى جماعة الأدباء الشبان. وفى

نفس العام تصدر «بلاد الكرنفال» التي تنفجر كقنبلة فى الجو الأدبى الراكد آنذاك. وتلاقى الرواية حفاوة شديدة من النقاد والجمهور على السواء.

فى هذه الرواية التى كتبها فى سن الثامنة عشرة يضع آمادو يده على موطن الداء فى البرازيل: البحث عن الهوية. ليس فى السياسة فحسب بل فى الاقتصاد والأدب وأساليب الحكم وكل نواحى الحياة.

أليست هى المعضلة فى كل بلاد العالم الثالث تقريباً؟ وهكذا تكون هذه الرواية التى كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

وسوف تؤكد أعمال آمادو اللاحقة على التزامه السياسى والاجتماعى إذ تصدر له «كاكاو» فى ١٩٣٣ فتصادرها الشرطة لتصديها لمشاكل البرازيل الاجتماعية، تتبعها رواية «عَرَقْ» فى ١٩٣٤، «جوبيابا»، «بحرميت» فى ١٩٣٦، «قباطنة الرمال» فى ١٩٣٧، طريق البحر (شعر) فى ١٩٣٨، «ألف باء كاسترو آلفيس» (سيرة» فى ١٩٤١، «فارس الأمل» فى ١٩٤٢، «أراض لا نهاية لها» فى ١٩٤٣، «أرض ثمارها من ذهب» فى ١٩٤٤، «دروب الجوع» فى ١٩٤٦، «فى حب كاسترو آلفيس» (مسرحية) فى ١٩٤٧، «عالم السلام» (أدب رحلات) فى ١٩٥٠، «أنفاق الحرية» فى ١٩٥٤، «جابرييلا» فى ١٩٥٨، «البحارة المسنون» فى ١٩٦١، «رعاة الليل» فى ١٩٦٤، «دونا فلور وزوجاها الاثنان» فى ١٩٦٦، «دكان العجائب» فى ١٩٦٩، «تيريزا باتيستا» فى ١٩٧٢، «تييتادو آجرستى» فى ١٩٧٧، «فاردا فارداو» فى ١٩٧٩.

ويقسم بعض النقاد هذه الروايات تقسيماً مكانياً إلى ثلاث مجموعات: روايات الأرض، وروايات البحر، وروايات المدينة. وهناك تقسيم آخر يحلو

لبعض النقـاد أن يتبعوه إذ يقسـمونها إلى: روايات ـ ملاحم، وروايـات ـ قصائد، وروايات ـ مسـاخر. وفى كل هذه الأعمال يعـالج آمادو موضـوعاته وشخصـياته مركزاً على الوجدان الشعبى بكل ما يرفده من حكايات شعبية وأساطير وفولكلور معتـمداً على أساليب الحكى الشفاهيـة، وإن كانت غنائيته لاتحـجب الوثائقية فى أعماله، إذ تعتبر كـل أعماله وثائق اجتماعية واقتصادية وسـياسية تقف على قدم المساواة مع الأبحاث الأكاديمية فى علوم الاجتماع والانثروبولوجيا.

وإذا كـان بعض الأدباء يعـيشـون فى أبراج عـاجـية أو فى أفـضل الأحـوال، يجمعـون حولهم حلقة من المريدين من ناشئة الأدباء أو مـدعى الأدب فإن «آمادو» يعيش كأديب وإنسـان ملتحماً بشعـبه الذى أحبه والذى يبـادله حباً بحب. وهذه شهادة من الأسـتاذ «روچيه با ستيد» الناقد الأدبى وعالم الأنثروبولوچيا الفرنسى الشهير والذى تجمعه صداقة حميمة بچورچى آمادو. يقول «روچيه باستيد»: «كنت أرافـقه مـراراً فى شوارع «باهيـا» وكانت تأتى بـنات الله للركوع أمـامه طالبـات بركتـه، وكان البـاعة المتجـولون يحيونـه بصيحـاتهم وضحكاتهم المرحـة. وكان الزنوج يشدونه بين سواعـدهم ويقدمون له قدحاً من القهـوة أو كأساً من الشراب تعبيراً عن الصداقة المناضلة».

وأخيراً، فإن «بلاد الكرنفـال» التى صدرت فى البرازيل فى ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لايمكن قراءتها إلا بالبرتغالية حسب رغبة مؤلفها. فى ١٩٨٤ فقط، وتحت إلحـاح الأستاذة «لوتـشانا سـتيجـانو بيتـشو» وافق چـورچى آمادو، وبصـفة استثنائية، أن تظهر الرواية فى ايطاليا فى طبعة خاصة بمناسبة عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبيعياً أن يصرح للسيدة «آليس ريّار» أن تترجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار فى باريس فى ١٩٩٠ وهى التى نترجمها هنا.

ومن حسن المصادفة أن أول أعمال «چورچى آمادو» التى تترجم فى مصر هى فى نفس الوقت أولى رواياته: «بلاد الكرنفال» والتى يواكب نشرها الاحتفال بعيد ميلاده الثانى والثمانين. فلينعم بالصحة والعمر المديد.

شحات صادق

نوفمبر ١٩٤٤

١

بين زرقة السماء وخضرة البحر، كانت السفينة تتجه إلى المرفأ فى خط مستقيم، يرفرف فوقها علم الوطن ذو اللونين الأخضر والأصفر (١).

كانت الثالثة بعد الظهر. الهواء ساكن وحرارة الجو مرتفعة. وعلى متن السفينة، بين الفرنسيين والإنجليز والأرجنتينيين واليانكى (٢)، كانت البرازيل كلها موجودة وصيحات (مرحباً بالكرنفال!).

إقطاعيون أغنياء عائدون من أوربا حيث جابوا الكنائس والمتاحف، ودبلوماسيون تذكر هيئتهم بعارضى الأزياء. سياسيون سمان أغبياء مع بناتهم النحيفات الساذجات وأولادهم الدكاترة الأغبياء.

وفى الخلف كانت فرنسية جميلة تملى عينيها من روعة مياه البحر. مغامرة متدربة حتى ليقال: إنها تعرف كل البلدان وكل الأجناس، ومما يعنى بالتالى أنها تعرف كل أنواع الرجال. كانت تبتسم فى تسامح لحفنة من الأبناء الحالمين لبعض العائلات البرازيلية والأرجنتينية الثرية:

---

(١) علم البرازيل (المترجم).

(٢) اسم أطلقه الإنجليز على المستعمرين المتمردين فى نيو إنجلاند، ثم أطلقه الجنوبيون على الشماليين، ومنذ ذلك الوقت والاسم يطلق على سكان الولايات المتحدة الأنجلو ساكسون. والمقصود به هنا هو الأمريكى الأبيض. (المترجم).

ـ إنك جميلة يا آنستى...

ـ إننى أبذل حياتى من أجلك...

ـ إشارة منك وألقى بنفسى فى الماء!

ـ أود أن تغرق السفينة لأبرهن لك عن مدى حبى...

كل ذلك قيل بفرنسية ركيكة أثارت حسد الشبان الذين يقرأون «ديكوبرا»، والذين يكنون لـ «تيرادنتس» (١) عاطفة وطنية.

كان الجميع يتصببون عرقاً فى ملابسهم السميكة الأنيقة المصنوعة فى باريس ولندن بأثمان غالية، ماعدا الفرنسية التى كانت ترتدى فستاناً بسيطاً من الموسلين الأبيض. كانت جميلة حقاً. عينان خضراوان بلون البحر وبشرة شديدة البياض. فلا غرابة فى أن يعبر لها هؤلاء البرازيليون والأرجنتينيون الاستوائيون عن فصاحتهم العزيزة على الوطن.

فى مقدمة المشهد كان هناك أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وإقطاعى، وأسقف، ودبلوماسى، وزوجة عضو مجلس الشيوخ، يتجاذبون أطراف الحديث فى طمأنينة برجوازية لأولئك الذين يمتلكون مملكة الأرض ولديهم ثقة فى قدرتهم على شراء مملكة السماء قال الإقطاعى:

ـ نعم، إن المحصول وفير ولكن الثمن...

ـ إيه ياكولونيل (٢)، أتريد أن تجعلنى اعتقد...؟ حتى بهذا الثمن فإن البن

---

(١) هو طبيب أسنان كما يعنى اسمه (تيرادنتس) واسمه الحقيقى «چواكيم خوسيه داسيلفا شافييه» (١٧٤٦ ـ ١٧٩٢) قاد ثورة ضد البرتغاليين فقبضوا عليه وأعدموه ـ (المترجم)

(٢) «كولونيل»، من الألقاب الشرفية فى البرازيل. (المترجم)

سيستمر فى تحقيق أرباح خيالية... إنه ثروة «سان باولو» (١) وثروة البرازيل.
اندفعت زوجة عضو مجلس الشيوخ فى حماسة شوفينية:

- ذلك بالتحديد لأن البرازيل هى «سان باولو».

- أوه، سيدتى! معذرة إن كنت لا أشارك سيادتك الرأى، لكن... كان الدبلوماسى هو المتحدث. فهو سكرتير السفارة فى باريس، ومع ذلك لم تترك أول وظيفة له فى خدمة الوطن أى أثر عليه. لقد ولد فى «باهيا» (٢) يحمل فى دمه وفى شعره أمارات فسوق أسلافه البرتغاليين مع جداته الأفريقيات.

- ولكن هناك ولايات أخرى كبيرة... انظرى «باهيا». سيادتك، إن «باهيا» تنتج كل شئ... كاكاو، وتبغ، وفاصوليا سوداء. وتنتج أيضاً رجالاً ياسيدتى، عبقريات كبيرة... «روى باربوزا» (٣) كان باهيانياً...

- ولكن اليوم يا دكتور (٤)...

- أوه، سيدتى، لاتقولى لى... اليوم أيضاً هناك مواهب كبيرة... أمّن الأسقف قائلاً:

- إن الدكتور نفسه هو البرهان...

- رفقاً غبطة الأسقف... إن الكنيسة دائماً ذات إحسان..

لخص عضو مجلس الشيوخ، بما يعطيه مركزه من سطوة، مجمل المحادثة على النحو التالى:

---

(١) «سان باولو» العاصمة الاقتصادية للبرازيل. (المترجم)

(٢) «باهيا»: ولاية برازيلية فى الشمال الشرقى، وعاصمتها مدينة سلفادور على الأطلنطى. مسقط رأس الكاتب. (المترجم)

(٣) «روى باربوزا»: أديب وسياسى بارز، نال شهرة كخطيب مفوه. وهو أكبر برلمانى وضع بلاغته فى خدمة العدالة الاجتماعية. (المترجم)

(٤) «دكتور»، من الألقاب الشرفية فى البرازيل. (المترجم)

ـ إنها البلد الأكبر مستقبلاً فى العالم!

قال شاب جاء للتو:

ـ بالضبط: لقد أجاد السيد تعريف البرازيل (ابتسم عضو مجلس الشيوخ ابتسامة عريضة). فالبرازيل هى البلد الأخضر بلا منازع، المفعم بالمستقبل وبالأمل... الأمر لايتعدى ذلك أبداً... فانتم البرازيليون. شيوخاً أو شباباً، يامن كنتم تمثلون أو مازلتم تمثلون أمل الوطن، إنما تحلمون بالمستقبل. «ستكون البرازيل فى مدى قرن أول بلد فى العالم». أراهن أن هذا المؤرخ الكريه بيروفاز ديه كامينيا» قال هذه العبارة ذاتها عندما وجد «كابرال» (١) بالمصادفة البلد الذى جاء ليكتشفه عمداً.

احتج الدبلوماسى. واضعاً يده على صدره بحركة مسرحية:

ـ إن كل أجنبى يعرف اليوم بفضل سلكنا الدبلوماسى ـ وبلا تواضع ـ البرازيل العظيمة الشهيرة!

ـ وبالانتظار، فإن هذه الفرنسية الشابة التى عرفت العالم كله، وكان لها ماخوراً فى بكين، واتخذت من الزنوج عشاقاً فى مستعمرة «الكاب» (٢) وربحت أموالاً فى «مونت كارلو»(٣)، تعتقد أنها تبحر باتجاه بلد يدعى «بوينس أيريس» وعاصمته هى البرازيل، المدينة التى يرتدى سكانها التنورة. وأستطيع أن أؤكد لك ياسيدى أنها ذاهبة إلى هناك لتتمكن هى نفسها من ارتداء التنورة، لأنها من أنصار الحياة البدائية.

---

(١) بيدرو ألفاريس كابرال، ملاح برتغالى استولى على البرازيل لحساب البرتغال فى ٢٢ أبريل ١٥٠٠م (المترجم)

(٢) مدينة بأقصى الجنوب الغربى لجنوب أفريقيا، وميناؤها المعروف بنفس الاسم يطل على المحيط الأطلنطى (المترجم)

(٣) مدنية بإمارة موناكو بها كازينو القمار المشهور. (المترجم)

ـ إنها خليعة، هذا مؤكد.

ـ سوف تصاب المسكينة بالإحباط!

ـ ولكن يا دكتور «ريجيه»، من وجهة نظر دينية على الأقل، فإن البرازيل شهدت تقدماً كبيراً. واليوم...

ـ اليوم، تسود الخرافة. فى الشمال، الدين ياسيدى عبارة عن خليط من عبادة الأوثان، واستحضار الأرواح، والكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، فإننى لا اعتقد أن المسيح قد جاء بدين. لقد كان المسيح مجرد يهودى رومانسى ثائر. أنكم أنتم معشر القساوسة والبابوات من تصنعون الدين... ولكنكم إذا ظننتم أن هذا الدين هو السائد فى البرازيل، تكونون مخطئين. فهناك تحريف إفريقى لهذا الدين. «فالماكومبا»(١) فى الشمال تحل محل الكنيسة التى حلت محلها فى الجنوب محافل مناجاة الأرواح. إن مسألة الدين فى البرازيل هى مسألة خوف.

رسمت زوجة عضو مجلس الشيوخ، التى بدا عليها الاستنكار، علامة الصليب. بينما رسم الدبلوماسى على شفتيه ابتسامة فارغة. أما الأسقف الذى كان ذكياً فقد أراد أن يحتج ولكن الوقت لم يسعفه، فقد دق شاب من عمال السفينة ناقوساً ضخماً معلناً عن موعد الطعام، وأطاع الجميع سلطان المعدة.

* * *

على سطح السفينة، استغرق «باولوريجيه» فى أفكاره. ها هو عائد إلى البرازيل بعد سبع سنوات من الغياب. عندما كان لا يزال فى المدرسة الثانوية، فقد أباه الذى كان من أغنى إقطاعيى الكاكاو فى جنوب ولاية باهيا: كانت آخر رغبة لريجيه العجوز أن يذهب ابنه ليتعلم فى أوروبا. وهكذا ما إن أتم باولو دراسته

(١) «الماكومبا»: طقس دينى يمارس خلاله الزنوج الرقص والغناء على قرع الطبول وهو أشبه شىء بالزار عندنا (المترجم)

الثانوية حتى اتجه إلى باريس من أجل الحصول على درجة الليسانس. لقد أراد ريجيه العجوز أن يحصل ابنه على شهادة. فقد كان الحصول على درجة علمية من البرازيل أمر تافه للغاية، فلا مستقبل إلا لحاصل على الدكتوراه من أوربا.

وفي باريس، وكأمر طبيعي، فعل باولو ريجيه كل شئ إلا دراسة القانون. وعندما حصل على الشهادة، أصبح متبرماً وقد لوثته كل آداب ماقبل الحرب وبسبب روحه المتوثبة، كان له أصدقاء بين المثقفين، يغشى أوساط الصحفيين، يردد عبارات رنانة فارغة، يتناقش ويأتى دائماً بالنقيض. كان الموقف المضاد موقفه دائماً. لم يتوصل، وقد أصبح فرنسياً أكثر من الفرنسيين، إلى إيجاد أساس لحياته. لم تكن له فلسفة معينة، فهو يسخر من روح الجد عند الجيل الجديد ويقول إن الإنسان الموهوب ليس فى حاجة إلى فلسفة.

كان فى السادسة والعشرين شخصاً عقلانياً، يتفرج على الحياة، غير مكترث، وكان قد فقد، منذ وقت طويل، الحس الدينى والإحساس بالوطن. كان بارداً لا يتأثر. كانت له ملذات شتى: يحب معارضة أفكار زملائه، وكان لديه ميل إلى دراسة النفوس.

طاف بكل أنحاء باريس، من أكثر الصالونات ارستقراطية إلى أحقر الكباريهات، مدفوعاً بشهوة التنقيب فى النفوس وتعرية العواطف ودراستها...

وهكذا كان يعتقد بأنه إذا حدث فى يوم أن تعرضت حياته لمغامرة فإنه سيكون مستعداً لمواجهتها ودراستها وتشريحها. كان يلبس نظارة أحادية العدسة (مونوكل) لأنه قيل إن هذا النوع من النظارات قد تخطته الموضة. تعلم فى باريس أن يتأنق فى ملبسه وأن يشبع كل ملذاته.

وكمنغمس فى اللذات، كان شبه مفتون بغرائزه. فقد جرّب كل الموبقات. وكان بنظرته المتعبة الحزينة يبدو كإنسان هجر كل الشهوات دون أن يشبعها. وكانت تسبح على شفتيه الرقيقتين ابتسامة مريرة ساخرة تثير القلق.

لم يعد «باولوريچيه» يؤمن بالسعادة، ومع ذلك فهـو يشعر فى دخيلته بأنه غير راضٍ. كان يشـعر أن حيـاته ينقصهـا شئ. ما هو هذا الشئ؟ إنه لايعرفـه. وكان ذلك يعـذبه. لقد كـرس كل حيـاته للبحـث عن غاية. كـان يتمـتم، على سطح السفينة، ناظراً للبحر: «نعم، لأن كل حياة لابد لها بالضرورة من غاية... ولكن ما هى؟» لكن البحر لـم يأبه له، ولم يجبه. كـانت الشمس المحتضرة ترسم فى الأفق مناظر ذات ألوان ملتهبة. إن الشمس هى أول التكعيبيين فى العالم...

* * *

وفى أثناء العشاء، ابتـسمت له الفرنسية الشابة. كـان فى ابتسامتهـا وعد فتان برغبـات مجنونة. أخذ باولوريچـيه يتخـيلها عاريـة. لابد أن تكون رائعة... هذه المرأة الناضـرة، لابد أن تكون ناعمـة. أقسـم أن يتعـرف بها. كـانت على حافـة السفينة تبتسم بسذاجة من لعب الأمواج البرئ. اقترب «باولوريچيه».

ـ مدموازيل...

ـ لا لست مدمواز يلاً بل «چولى».

ـ آه «چولى»، إنك رائعة!

ـ أهذا كل ماتقوله لى؟ إنه نفس مـا قاله لى كل هؤلاء الأولاد وهم يغازلوننى تواً. لقد ظننت أن لديك شيئاً جديداً تقوله لى...

ـ بالتأكـيد. أريد أن أقول لـك إن عينيك تعد بأشـياء غيـر معقـولة، ولكننى أعرف كل الأشياء اللا معقولة، وأشك فى أنك ستمنحيننى شيئاً جديداً.

ـ اليوم، فى الساعة الواحدة، سيكون باب قمرتى مفتوحاً.. سأنتظرك.

* * *

راح باولوريچيـه فى قمرته يتسـاءل عما إذا كـان عليه أن يذهب إلى چولى!

كان الإعيـاء يسيطر على أعضائه، إنه يفكر فى چولى، إنه خائف من عـينيها. لا، لن يذهب. فهذه المرأة لديها القدرة على الالتصاق به كالجرب فى البرازيل. وفوق ذلك، فإنها مجرد عاهرة مـشهورة. إمرأة تمارس الحب من أجل المال، دون حب. ما الجديد الذى تستطيع أن تعطيه إياه؟ اللذة، إنه يعرفها. الشهوة... لكن الحب ليس شهوة فـحسب. ربما يكون شيئـاً أكثر من ذلك... هذا الشئ الآخر لايعـرفه. كان يجزم بعـدم وجوده. وسـواء كان موجـوداً أم غير مـوجود، فإن الفـرنسيـة الشابة لاتستطيع أن تمنحـه إياه. إنها تعطى جسـدها فقط... وبنفس الطريقة دائماً، كـما هو الحال. تفاهات ! لا. لن يذهب...

انتظرت چولى طوال الليل عارية، تحلم بلذات لاحـدود لها. وكانت تبكى من الغيظ، وتعض وسادتها... وفى النهاية شتمته، إنه حيوان. ألا يعلم أنها ادخرت له المداعبات التى لم تبعها قط لمخلوق... مغفل!

وكان باولوريچيـه يحلم بأن له حبيبـة رومانسية تقرأ كـتابات «هنرى آرديل»، وتعزف على البيانو فالسات عاطفية.

وفى اليوم التالى كانت صيحة الاكتشاف:

ـ البر! البر!

وفى البعيد، لاحت بلاد الكرنفال.

٢

كان باولوريچيه متكأ على نافذة الفندق، يقرأ صحف الغد. كان فى ريوديه چانيرو، ومع ذلك، كان يشعر أن عاصمة الجمهورية لم تكن البرازيل. لقد جاب كثيراً من المدن الكبرى فى العالم. ولم تكن هذه المدن تخص بلداً بعينه، بل كانت مدناً عالمية. فباريس ولندن ونيويورك وطوكيو وريوديه چانيرو تخص كل البلاد، وكل الأجناس. كان باولوريچيه يطوق إلى التوغل فى الداخل، نحو «بارا» و«ماتو جراسو»، وأن يشعر عن قرب بروح الشعب الذى هو فى النهاية، شعبه. كلا، ليس شعبه... إن شعبه ليس هنا فتربيته الفرنسية كانت تصرخ فيه بأن شعبه هنالك فى أوربا. كان يتذكر أن البرازيليين فى باريس كانوا يطعنون فى وطنهم أما هو، وبروح المعارضة فكان يمتدح وطنه. وكان المسافرون على سطح السفينة، وقد أخذهم الحنين، يعظمون البرازيل، أما هو فكان يفعل العكس. والآن يريد أن يكّون فكرة عن البرازيل. فى أوربا، وفى الساعات التى كان قناع العقلانى يسقط عنه، كان يفكر فى اللحظة التى يعود فيها إلى الوطن، ويحلم بأن ينخرط فى السياسة، ويؤسس صحيفة تعلى من شأن البرازيل...

كانت وطنيته اللحظية تثير سخرية أصدقائه، وتجعلهم يداعبونه، فكان يعتذر بأن كل ذلك كان بدافع الأنانية. كان يريد أن يعلى من شأن وطنه، وبالتالى، يعلى من شأنه هو «باولوريجيه». مجرد وسيلة... ولكن فى دخيلته كانت الأنانية تملأه...

كان أصدقاؤه يوافقونه. فالوطن لم يكن بطبيعة الحال هو الغاية...

لم تكن الصحف تتحدث إلا عن الحملة السياسية التى تهز البلاد. ففى جانب، كان رئيس الجمهورية، الذى يستند إلى عدد معين من الولايات، يريد أن يفرض مرشحاً من اختياره ليخلفه فى السلطة، وفى الجانب الآخر، كانت ولايات المعارضة تريد انتخاب رئيس بإرادتها.

قرأ «باولوريچيه» فى إحدى الصحف: «لايزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون فى سبيل الحرية» كانت هذه الكلمات المطبوعة بحروف كبيرة مقتطفاً من خطبة لأحد نواب المعارضة.

ابتسم ريچيه:

ـ يالها من ميتة غبية، الموت كفاحاً من أجل حرية الوطن...

كان خادم الفندق الذى دخل بطعام الإفطار يتمتم:

ـ هذا الشخص من أنصار «برستس»...

بعد أن قدم له الطعام (وبعد أن داعبت أذنيه خشخشة نقود البقشيش).

أخذ يمتدح مناقب الدكتور «خوليو برستس». وسط دهشة ريچيه.

* * *

أخذ باولوريچيه يسير فى الشارع على غير هدى. يشعر أنه غريب فى وطنه. كان يجد كل شئ مختلفاً... إذا كان يشعر بذلك فى ريوديه چانيرو فكيف سيكون الحال فى «باهيا» عندما يذهب ليستقر بصحبة أمه العجوز؟...

هل سيستطيع العيش هناك؟ وألم به حنين جارف إلى باريس... يجب أن يعيش بطريقة برجوازية... لن يكون له زملاء مثقفون... سوف يتفتح ذهنه...

وربما يتزوج... وربما يذهب ليسكن فى المزرعة... يالها من نهاية بالتسبة له، أفسدته الحضارة وأمرضته... المهم...

توقف باولوريچيه أمام محل للاسطوانات. كان صوت «المارش» الصاخب يملأ الفضاء بموسيقى غريبة شجية مفعمة بالمشاعر التى لايفهمها باولو.

كانت كلمات «المارش» تقول:

منذ زمان وهذه المرأة تستفزنى...

إضربها...

إضربها...

فكر باولوريچيه:

ـ لابد أن هذه هى الموسيقى البرازيلية. الموسيقى العظيمة للبرازيل.

وظل ينصت مأخوذاً ببربرية الإيقاع. لابد أن تكون روح الشعب هنا... ولما كانت مختلفة عن روحه... لم يكن قط ضرب إمرأة. كانت الأغنية تزعق:

إضربها...

إضربها...

ثم واصل طريقه. وعلى مبعدة قابل الدبلوماسى.

ـ أوه، دكتور ريچيه ! فى نزهة، أليس كذلك؟

ـ فعلاً. أقوم باكتشاف ريو...

ـ ألم تكن قط فى العاصمة، يا دكتور؟

ـ كلا. عندما ذهبت إلى أوروبا أبحرت من باهيا. ولكنى هذه المرة اعتزمت أن أعود إلى هنا خصيصاً لاكتشف ريو...

ـ وهل أعجبتك؟ نعم، بطبيعة الحال، كما أخمن. إنها الطبيعة يا دكتور، أليس كذلك؟ الطبيعة الساحرة.. أجمل شئ فى الوجود.

ـ ولكنى أعتقد أن الطبيعة تسبب ضرراً بالغاً للبرازيل. فالانسان هنا يبدو كسولاً متراخياً... لابد أنها الطبيعة... بكل عظمتها، تسبب الضرر. إنها تسيطر وتسحق.

ـ نعم. ربما... ولكن. لقد كان لدينا عظماء يا دكتور. روى باربوزا... كان باولوريچيه قد قرأ لروى باربوزا. لم تمتعه قراءته... بلاغته صاخبة... ولم يفهم كيف يعجبون بهذا الرجل... وفوق ذلك، ليست لديه أفكار... ذو نزعة وطنية بلهاء... ومضجرة. كلا، من المؤكد أن ليس لديه ما يشغل باله بروى باربوزا هذا.

قال الدبلوماسى «خوسيه آوجستو داسيلفا رييس» مستنكراً:

ـ إن روى عبقرى... عبقرى... عبقرى إلى أقصى الحدود... حتى فى فرنسا يعجبون به.

ـ فى فرنسا؟ جائز...

ـ والقانون؟ إن قليلين من يعرفون القانون مثل روى. والمنصب الذى يشغله فى «لاهاى»؟

ـ إن معرفة القانون لاتحتاج لموهبة. الذاكرة تكفى...

قابلا أحد الباهيانيين. نائب من جنوب الولاية. إن رأسه الصغيرة وأذنيه الكبيرتين يدلان على غباء ورائى.

قام خوسيه آوجستو بالتعارف:

ـ دكتور أنطونيو راموس» نائب من باهيا. دكتور باولوريچيه الذى عاد من فرنسا. إنه ابن جودو فريدو الكبير..

ـ أوه كم أنا سعيد بمعرفتك... فنحن أبناء بلد واحد.

عقب خوسيه أوجستو:

ـ نحن أبناء ثلاثة بلاد...

جلسوا فى إحدى الحانات لتناول مشروب فاتح للشهية. اقترح النائب أن يكون على شرف باهيا. دار الحديث عن حملة الانتخابات الرئاسية. كان النائب من أنصار «برستس».

ـ آه! إن ما يريده الرعاة هو السلطة... السلطة فقط... لايهمهم لا وطن ولاشئ.

أكد خوسيه آوجستو:

ـ معك الحق يادكتور، كل الحق...

ثم وبصوت خافت سأل النائب:

ـ والمشروعات يا دكتور؟ فى تحسن مستمر، أليس كذلك؟

ـ أحياناً... الآن تسير الأمور إلى أسوأ. لا فائدة من أن يكون المرء نائباً... ولكن فى الوقت الراهن، كل جهدى مكرس للوطن. بل إننى سألقى خطبة ضد المعارضين... يجب أن تحضرها. سوف تكون خطبة مميزة. ثم وجه الحديث إلى باولو:

ـ دكتور ريچيه، تعال لزيارتى. أريد أن أقدمك إلى زوجتى. إنها تعشق باريس، وتريد أن تتعرف بك. إن زوجتى سيدة فاضلة...

تابع باولوريچيه بعينيه النائب يبتعد فى الشارع: كان النائب يلقى التحيات ذات اليسار وذات اليمين، بكثير من البهجة، على طريقة السادة الكبار.

قال خوسيه أوجستو مفسراً: إن ذلك الرجل مغفل... فهو يمارس السياسة لأنه تزوج ابنة رجل ذى نفوذ. إنه لا يعدو أن يكون صهر السيد فلان. وفى مقابل ذلك، فإنه يترك زوجته تفعل ما تشاء... أما هى فلا تساوى شيئاً. وليس لديها أى احتشام...

ـ هل كل النواب من نفس العجينة؟

ـ كلهم. طغمة. لصوص... ليس لديهم وطنية حقيقية. تصيد وقح.

إن ما يلزم البرازيل هو الثورة. لقد كنت ثائراً دوماً فالثورة هى التى سوف تقطع رأس الكثير من السياسيين، وهى التى سوف تسدد الديون الخارجية، وتدخل البلاد فى طريق الرخاء...

ـ ولكن يبدو لى أن السياسيين فى المعارضة. هم كذلك نسخة طبق الأصل.

ـ إنهم متشابهون! ولكننى علمت من صديق قديم أنه سيصبح وزيراً للخارجية... وسأكون أنا مفوضاً! الثورة، الثورة... هل قرأت اليوم خطبة زعيم المعارضة فى الصحف؟ «ما يزال هناك برازيليون يعرفون كيف يموتون من أجل حرية الوطن». كأنها خطبة لروى... إننى من هؤلاء البرازيليين...

ـ أما أنا فأجد من الغباء أن يموت المرء من أجل الحرية... غباء تام...

ـ ذلك لأنك لست وطنياً... الموت من أجل الحرية ومن أجل... الفوضية. ضحك متهكماً. وضحك باولوريچيه أيضاً وهو يتمتم:

- الأنانية سيدة العالم، سيدة العالم...

مرصبية يبيعون صحف المساء صائحين:

- إقـرأ «النواتى»، «الجلوبو»، «الدياريو»... «دياريو، نواتى،جلوبو...» «خطبـة النائب فرانشـيسكو ريبـيرو.حملة انتـخابات الرئاسة. الكـرنفال على الأبواب... الكرنفال... النواتى...»

وفى الخـارج، كانت الجـماهيـر تتدافـع فى بهجـة واضحـة.كانت المحـلات التـجاريـة تغص بالناس يشـترون الملابس وحـلى النساء الرخـيـصـة. لقد كـان الكرنفال على الأبواب.

قال «ريجيه»:

- البرازيل هى بلد الكرنفال.

وأضاف «خوسيه أوجستو»:

- والعظماء!والعظماء...

ابتـسم بفـخـر، ودفع ثمن المشـروبات، ونهض ليـذهب لمقـابلـة النائب «فرانشـيسكو ريبيـرو» الذى مرفى هذه اللحظة بالتحـديد، ليقدم له تهنئـته على «الخطبة العصماء».

- بلد العظماء...العظماء... والكرنفال...

وفى بهو الفندق،كانت مفاجـأة فى انتظار باولوريچيه .كانت «جولى» هنالك تقرأ بمجلة. أراد أن يمر بسرعة دون أن يحييها، لكنها لمحته ونادت عليه:

- إننى جد غاضبة منك...

- لقد كنت مريضاً .،وأمضيت ليلة صعبة... ولهذا السبب لم آت. اعذرينى.

إننى أعـذرك، ولكن ليكن فـى علمك أننى لا أصـدق. والآن، سـوف نتناول العشاء سوياً...

تناولا العـشاء سـوياً، بل وأكثـر من ذلك، لقد رقـدا معـاً. وظل باولوريچـيه مشدوداً إلى چولى. فـهذه المرأة المفعمة بالجنس والرغـبة قد استحـوذت عليه. قال لنفسـه: إنه يريد أن يعرفهـا تماماً، وأن يدرس نفسـيتهـا. وأخذ يحيـا، بين بياض ذراعيـها، عاطفـة مشبـوبة. أظهر كلاهمـا مجهـودات جبارة ليـعطى للآخر شيـئاً جـديداً. تحـابا هذان الماجنان بضـراوة. قررا أن تـذهـب معـه إلى باهيـا ليـعـيشـا غرامهما.

سألها ذات يوم:

ـ أتحبيننى؟

ـ أحبك...

ـ مثل كل الآخرين، أليس كذلك؟

ـ أأنت غيور؟ ياللعجب...

كلا، لم يكن غيـوراً، ولكنه يريدها له وحده، وألا تكون لانسان آخـر. لنفسه فقط... كلية.

وضع على الفونوغراف اسطوانة يحبها كثيراً. كانت الأغنية تقول:

فى بيت الكابوكلو (١)

واحد قليل

(١) الخـلاسى المولود لأب أبيض وأم زنجية أو الـعكس. واللفظ يطلق داخل البـرازيل ليـدل على الفلاح الفقير بصرف النظر عن أصله العرقى. (المترجم)

اثنان معقول

ثلاثة كثير...

كان يشرح لها ما تقوله هذه الأغنية البرازيلية.

ـ هل تشك فيّ؟

ابتسم بحزن:

ـ كلا، بل أشك في نفسي...

* * *

وفي المساء الذي خرج فيه ليستمتع برؤية المدينة، جعله الضجيج المصم يفزع. رأى الشوارع تغص بالناس، والسيارات تمر محملة بالفتيات المتنكرات. جنون عام...

أيقن باولو ريچيه أنه سبت الكرنفال. استقل سيارة، وأخذ يتتبع سيارة تغص بالفتيات. كن البنات العفيفات لأحد الكتاب الأخلاقيين المتهوسين. رش ريچيه على أجملهن قليلاً من زجاجة العطر. انفجرت في ضحك هستيري. ثم ذهبا للرقص. جعلها زحام القاعة، والرقصة التي تقربهما، تغيب عن الوعي. قبلها كثيراً ولامسها كثيراً. لاحظ أن الجميع يقبلون بعضهم البعض ويتلامسون.

هذا هو الكرنفال... الانتصار المطلق للغريزة وسيطرة الجسد...

صاح باولوريچيه:

ـ يحيا الكرنفال!

وردت القاعة كلها:

ـ يحيا الكرنفال!

وأخذت الآنسة العفيفة تلتصق به أكثر.

* * *

عندما خرج باولو ريچيه كانت جماعة من الخلاسيات يرقصن «السامبا» فى الشارع. بشرتهن بلون القرفة. كن يهززن أردافهن فى هياج وخلاعة. شاهد باولو هناك كل مشاعر الأجناس، ورأى نفسه يندمج فى شعبه، واستغرق فى السامبا صائحاً:

إضربها

إضربها

ألصقت خلاسية سمينة بطنها به. تشابكا بالأيدى واستمرا فى الرقص فى الشارع. حتى عازفى الجيتار كانوا يرقصون السامبا فى بهجة محمومة كمن لم يمنح حريته إلا منذ ثلاثة أيام.

كانت الخلاسية تضغط بشفتيها على شفتى باولو ريچيه.

ود لوصاح: «تحيا البرازيل! تحيا البرازيل!» كان يشعر أنه اندمج فى روح هذا الشعب. ولم يفكر بأنه فى خلال الكرنفال فقط، يستسلم الجميع ـ مثلما ـ يفعل هو طوال حياته، لغرائزهم، ويجعلون من الجسد إله الإنسانية... عندما وصل إلى الفندق، كان النهار قد أشرق، واستيقظت الطبيعة كلها غريبة وسط هذيان تلك الليلة. وفى الغرفة لم يجد چولى. لقد خرجت بطبيعة الحال. لقد ذهبت إلى الكرنفال.

حاول أن يضحك. هيا، ما الأهمية!... إنها فى نهاية الأمر مجرد امرأة قضى معها بعض الوقت. ما الأهمية...

ياللشيطان! إن ذلك يؤلمه. إن التفكير بوجود چولى مع رجل آخر فى الفراش يؤلمه. كلا، إن ذلك مستحيل... ثار على نفسه. إن ذلك مستحيل، لماذا؟ إنها مع

آخر... مع آخر فى الفراش... ولكن ما دخله بذلك؟... إنه لايحبها... ألا يحبها فعلاً؟ كلا، إنه يريدها فقط ولكن الحب هو الامتلاك... إذا كان يرغب فيها فلأنه يحبها... نعم إنه يحب هذه المرأة الماجنة، ولابد أنها الآن مع آخر، ربما... وترقد معه، من يعرف؟ إنها طبعاً لاتحبه.

بدت له الغرفة خالية بدونها... وبدا له الفراش بدون جسدها الأبيض لايطاق...

* * *

بعد مرور بضعة أيام. قدمه خوسيه آوجستو إلى كاتب كاثوليكى. إنه زعيم الكاثوليكية على هذه الأرض. أبدى الكاتب خلال المحادثة صدقاً جعل باولو يعجب به. طلب من ريچيه أن يساهم فى مجلته. كان يريد انطباعاته عن الأجناس. ووعده باولو. وبعد عدة أيام أعطاه قصيدة «الخلاسية المجهولة»:

«أنشدُ لخلاسية مواخير سان سباستيان من ريوديه چانيرو... الخلاسية التى بلون القرفة، والتى لها تقاليد واعتزاز وطية، (هذه الطيبة تجعلها تفتح فخذيها الخلاسيين الممتلئين الأملسين لإشباع الغرائز النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين).

فبين فخذيها المقدسين يستريح مستقبل الوطن، ومن هناك يخرج جنس قوى، حزين، خشن، جامح، ولكنه فى أعماقه عظيم، لأنه طبيعى للغاية، ومفعم بالإثارة.

لذلك أيتها الخلاسية العطرة لبرازيلنا الافريقية (البرازيل هى تجمع أفريقى مهاجر إلى أمريكا)، لاتكفى عن فتح فخذيك للغريزة النهمة للشعراء المساكين والطلاب المتشردين فى هذه الليالى الحارة للبرازيل عندما تكون نجوم كثيرة فى السماء، وعلى الأرض كثير من الشهوات.»

قال الكاتب إن القصيدة جيدة وصادقة.

ولكن القصيدة لم تنشر. لأنها تسئ إلى الأخلاق البرازيلية...

٣

فى الحانة، كان بعض الشباب يجلسون إلى المائدة، يثرثرون. وفى الشارع، كانت المصابيح الكهربية تلقى بخطوط من الضوء على الظلمة المحيطة. وعند مفترق الطرق، كانت زنجيات سمينات يبعن «الأكاراچيه» (١) و«المينجاو» (٢). وفى ظلال الليل بدت باهيا كأطلال حضارة بدأت لتوها فى الازدهار.

وضع «ريكاردو براس» القبعة على رأسه وقال:

ـ أنقوم بنزهة يا جماعة؟

اعترض «چيرونيمو سواريس»:

ـ كلا. علينا أن ننتظر «تيسيانو».

ـ ولكن الساعة الآن التاسعة. ومن المحتمل ألا يأتى «بيدروتيسيانو» إنه يشعر بالتعب سريعاً فى الأيام الأخيرة...

أعلن صوت من خلف ريكاردو:

---

(١) طبخة شعبية تصنع من هريسة الفاصوليا مضافاً إليها التوابل وتقلى فى زيت النخيل على هيئة أقراص. وهى أشبه شىء بالطعمية عندنا. (المترجم)

(٢) المينجاو: نوع من الحلوى الشعبية على هيئة العصيدة تصنع من دقيق المانيهوت واللبن. (المترجم)

ـ ولكن من أجل الأصدقاء، لابد من التضحية!

ـ أوه! تيسيانو! إنك... إنك أتيت فقط لتكذبنى.

خبط چيرونيمو على المنضدة منادياً فتاة المقهى:

ـ احضرى قهوة ياحبيبتى.

وطلب «جوميز» (وهو مدير لصحيفة رديئة):

ـ وماء. كوب ماء...

أخذ تيسيانو كتاباً من يدى «چيرونيمو».

ـ إيه ياولد! أتقرأ الآن «خوسيه ديه آلينكار» (١)؟

ـ إننى أعيد قراءته. «آلينكار» يعجبنى كثيراً...

ـ إنه شاعر جيد... شاعر جيد..

ـ شاعر؟...

ـ نعم، شاعر. إنه «إيراسيما» قصيدة جميلة متجانسة. ولكن آلينكار روائى ردئ...

لم يوافق «ريكاردوبراس» على هذا الرأى، فقد كان يجد آلينكار ذا مواهب. ربما لايكون روائياً كبيراً، ولكن قراءته ممتعة.

ـ روائى لتلاميذ المدارس الداخلية وللأغبياء ممن يفخرون بدمائهم الهندية... فى هذه اللحظة، دخل «خوسيه لوييز» مصطحباً رجلين.

(١) خوسيه مارتينياو ديه آلينكار: كاتب وسياسى برازيلى، ولد فى سيارا (١٨٢٩ ـ ١٨٧٧)، رائد الرواية التاريخية، من أعماله: «جواراني»، «إيراسيما». (المترجم)

ـ تيسيانو، أريد أن أقدم لك السنيور «خوسيه آوجستو»، السكرتير الأول بالسفارة فى باريس. هذا بيدرو تيسيانو.

ـ تشرفنا...

ـ إننى أعرفك من الاسم... فاسمك مشهور فى ريو...

ـ هذا لطف منك...

كان تيسيانو يمقت مراسم التعارف.

ـ الدكتور ريچيه، محام.

ـ بيدروتيسيانو صحفى على هامش الصحافة...

مد كلاهما يده إلى الآخر مصافحاً.

كان بيدرو تيسيانو فى ذلك الوقت يناهز الرابعة والستين. صحفى قديم، وكان فى نهاية المرحلة الأخيرة من حياته على هامش الصحافة بعد أن حاز شهرة واسعة.

كان كل وجوده يتلخص فى إطلاق العبارات البارعة، وتحدى الذوق العام.

كان معروفاً فى ريوديه چانيرو بهجائه وروحه الساخرة. ولأنه هجاء من الطراز الأول فقد احتل موقعاً هاماً فى صحف العاصمة. وذات يوم أعطوه منصباً كبيراً فى أحد الأقاليم. فى باهيا، التى كانت فيما مضى تلقب بأثينا البرازيلية، كان الغباء يزدهر فى ذلك الوقت.

قرر بيدروتيسيانو أن يقوم فى هذه الأرض الطيبة بحملة من أجل أنصار الذكاء. بدأ بمهاجمة الأجناس المهجنة. أصبح شرساً يرعب الطلاب الذين يودون

أن يصبحوا شعراء، والأدعياء الذين يوقعون المقالات الأساسية فى الصحف الباهيانية.

(لأنه فى باهيا، مدينة كل القديسين، وخاصة القديس «بونفيم»، كل الناس مثقفون. فكل حاصل على البكالوريوس هو بالضرورة كاتب. والطبيب الذى يكتب بحثاً عن مرض الزهرى يطلقون عليه، على الفور، شاعراً، والقضاة يطلقون على أبحاثهم آراء أدبية، لم توات أحد الشجاعة لمناقشتها)

* * *

كان بيدرو يتسيانو يقول إن كل الأغبياء فى باهيا يعتبرون أنفسهم شعراء. وأعظم سادة المدينة شأناً إذا لم تنشر له أبيات رديئة فى مجلات أنيقة ستجده قد شخبط قصيدة من أربعة أبيات يحتفظ بها فى قاع درجه. وبدأت كراهية بيدرو تيسيانو. أخذت الصحف تقفل أبوابها فى وجهه شيئاً فشيئاً.

كتب فى إحدى المرات مقالة عنيفة ضد أحد السياسيين البارزين وأُرغم على الاستقالة من منصبه. ولم يعد بمقدوره أن يعود إلى ريو فظل فى باهيا فقيراً، لم يفز من حياته الطويلة إلا بكراهية كل الخلاسيين الباهيانيين الذين كانوا يكتبون.

أحاط به بعض الأصدقاء، عدد قليل.لعلهم آخر أصدقاء حقيقيين فى حياته. كانت متعته الكبرى تتمثل فى قدرته على الشك. ولم توات أعداؤه الشجاعة ليهاجمونه، لقد اضطروا للاعتراف بأن روح «بيدرو تيسيانو» أصبحت أكثر شباباً عن ذى قبل.

ومع الوقت، بدأ التناقض الغريب الذى يحمله اسمه يتكشف: «بيدور تيسيانو» اسم برجوازى صرف واسم لفنان. وكان هو يفسر ذلك، فأبوه كان تاجراً أمضى كل حياته يجتهد فى جمع الثروة التى تركها له. وفى الوقت الذى كان كل

الناس يعتقدون أنه شـديد الثراء، كان قد أفلس ومات كمـداً. أما أمه التى كانت تمتاز بحس رقيق (كانت تكتب لأخواتها رسائل شعرية، وتحتفظ فى غرفتها بصورة «فيكتور هوجو») فكانت ترى أن «بيدرو» اسم بشع، ولكى تخفف منه، أضافت إليه اسم «تيسيانو». وهكذا جرى تعميده باسم «بيدرو تيسيانو تافاريس». وعندما كبر «تيسيانو» حذف «تافاريس». وكان أبوه يعنفه بسبب شغفه بالصحافة. كان أبوه لا يشعر بميل نحو حملة الأقلام. وكان يردد أن الشعر لا يطعم أحدا. أما تيسيانو الذى كانت له فى ذلك الوقت بعض الميول الأدبية فقد حذف تافاريس من رسمه قائلاً إن أسرته لن تفيد من مجده. وأصبح فقط بيدروتيسيانو. والآن، فإنه يعتقد أن أباه كان على صواب، فالشعر لايطعم أحداً... لا الشعر ولا النثر... أصبحت هذه الصداقة العزاء الوحيد فى حياتهم. كانوا يشعرون أنهم متآزرون، فقد كانوا متعاضدين فى البحث عن سبب وجودهم، وبعد أن عرفوا مع بيدرو تيسيانو كل المواقف المتشككة، بدأوا فى خوض صراع ضد الشك. كانوا يريدون اكتشاف الغاية. وكانوا يقولون: نعم، هناك غاية للحياة. وكان بيدرو تيسيانو يؤكد:

ـ نعم، هناك غاية وحيدة، هى الموت...

كانوا يلتفون حول بيدرو تيسيانو الذى فتنتهم روحه، فكانوا يستمدون منه القوة. وكانت لهم الجرأة والشجاعة على قول كل الحقائق. وعلى الرغم من اختلاف أحدهم عن الآخر، فإن بينهم صلة قوية توحدهم.

أما «ريكاردو براس» الذى ولد فى «بياوى» فقد هاجر إلى باهيا وهو بعد مراهق، ليجرب حظه هناك. نجح فى الالتحاق بمدرسة الزراعة، ولكنه تركها بسبب عدم كفاية موارده. وبعد جهد، حصل أخيراً على وظيفة مكتبية، ودرس فى كلية الحقوق. نشر ديوان شعر. ولأن شعره نال نجاحاً فقد بدأ يكرهه. ولأنه كان محروماً من الحنان أصبح من أنصار العاطفة. كان ظمآناً للحب.

وعندما كان يفكر في غـاية الحياة، فإنه يتمثل دوماً فتاة ذات عينين واسعتين حزينتين كنموذج للزوجة المثالية.

أما «جوميز» مدير صحيفة «باهيا نوفا» ـ كما تقول بطاقات الدعوة التى لاتفارقه قط ـ فكان يمتلك ذكاء حاداً يعادل الأمية التامة السائدة.

كان قد جرب حوالى خمسين مهنة، من مستخدم فى أحد المحلات إلى محصل كمبيالات ميؤس من تحصيلها.

وأخيراً، قرر أن يصبح صحفياً. غاص فى منطقة «السيرتاو» (١) بحثاً عن الكولونيلات رؤساء المجالس المحلية الذين كانوا يمدونه بالمعلومات عن مدنهم، ويعطونه الصور والأموال. وصدرت الصحيفة. وهو شيء كان يعتبر مستحيلاً فى باهيا حتى ذلك الوقت. كانت فى عددها الخامس والعشرين (ولم يكن قد صدر منها بالفعل سوى أربعة عشر عدداً). اندمج «جوميز» فى وظيفته الجديدة كصحفى، لايفارق أبداً سيجاره وحقيبته التى يوليها أهمية تاريخية.

قال ريكاردو:

ـ أنت نذل «يا جوميز» ولكنك تزهو. إنك نصاب، بلا أخلاق... احتج «جوميز» وقد اصطبغ وجهه بلون قرمزى. وتدخل «تيسيانو»:

ـ إن مسألة الأخلاق هذه بلاهة فالرجل الموهوب لا خلاق له، وأنت يا جوميز موهوب. ليس هناك إلا عيب وحيد لايغتفر للإنسان: الغباء. ابتسم جوميز فى سعادة. وعندما تحولت المناقشة إلى عدم الرضا والبحث عن ماهية الحياة، اضطجع فى كرسيه، وعبر سحب الدخان المتصاعد من سيجاره كانت تمر أمامه مناظر لمنزل جميل وسيارات ونساء وكولونيلات، كولونيلات كثيرين يحملون صناديق الأموال...

---

(١) السيرتاو: منطقة كبيرة، شبه مهجورة فى شمال شرق البرازيل (المترجم).

كان الأكثر تـواضعاً بينهم يدعى «چيرونيمو سـواريس». خلاسى فاتح اللون، وسيم، ساذج، بلا طموح أو زهو، إنسان تافـه أراد تيسيانو أن يشكله على صورته وهيئته.

كانت لبيدرو تيسيانو أحيـاناً هذه الفظاظة. وكان «چيرونيمو»، قبل أن يتعرف به، يحيا فى طمأنينة، دون مشاكل، فى سلام من لا يفكرون ولايبذلون جهداً لكى يفكروا. ولكن تيـسـيانو (الذى كـان يقـدم نفسـه كإله) سلـبه صـفاءه. وأصـبح چيرونيـمو غـير راض، مفـعمـاً بالشك، غير قـادر على السيـر فى الحيـاة. جعله تيسيانو يفقد الإيمان بالله، وكان يسخـر من وطنيته. وأنتهى الأمر بچيرونيمو إلى أن يصبح دمـية بين يديه. وكـان تيسيـانو يلعب بهذه الروح ويشكلـها على هواه. وكان يبتسم عندما يفكر بأن سعادة هذا الإنسان أو شقاءه يتوقف عليه.

وكان أكـثر هؤلاء الشباب غرابة هو «خـوسيه لوييـز». كان قـد حصل على شـهادته منذ وقت قليل. وكـانوا يعـتبـرونه ذا موهبـة كبـيرة. وكـان على عكس «ريكاردو براس» لايهـتم بالعبارات الأدبيـة الرنانة أو التناقضـات . كان مندمـجاً تماماً فى الروح الجادة للجيل الطالع. كـانت له مناقشات مطولة مع ريكاردو الذى يؤكد أن الثقافة مفسدة، وأن لا أحد يقرأ لكى يتثقف.

كان ريكاردو يزعم قائلاً:

ـ إننى أقرأ من أجل المتـعة. فأنا أقرأ اليوم كـتاباً لأناتول*. إنه يعجـبنى. وإذا كان علىّ أن أختار غداً بين كتـابين. أحدهما لأناتول والآخر «لأونامونو» ، فإننى سأقرأ كتاب أناتول، لأننى واثق أن فيه متعتى.

رد خوسيه لوييز:

(*) أنا تول فرانس.

ـ أما أنا فأقرأ لأونامونو.

ـ وأنت ياتيسيانو؟

ـ أنا لا أقرأ إلا للكتاب الهزليين... إنه النوع الأدبى الأكثر مأساوية .

كما لا أذهب إلى السينما إلا لمشاهدة أفلام شارلى شابلن. إنها الأفلام الوحيدة التى تؤثر فىّ.

كان خوسيه لوبيز يطلق النكات أحياناً على أصدقائه. وكان يؤمن بضرورة محاربة الأدب المتحذلق وتقديس الإلحاد. لابد من عمل جاد، تحقيق شىء، إيجاد طريق فى الحياة.

قال لجوميز وهما يذرعان شوارع المدينة:

ـ لابد من فلسفة...

تهكم «ريكاردو براس»، وقد جعلته المعاناة يصبح مادياً، قائلاً:

لماذا لا تنضم إلى «التومائية» (١)؟

ـ من يدرى؟ إننى ملحد صوفى... إنسان منقسم ولكننى غير راض.

كان خوسيه لوبيز يشعر بأنه لم يحقق شيئاً، وكان لارتباطه العاطفى الشديد بأصدقائه لايستطيع الانفصال عنهم. فهم قد حلوا محل أسرته التى لم تكن له يوماً. لم يفز بالحرية التى يتطلبها البحث عن السعادة.

كان ريكاردو يقول له:

ـ إنك نموذج الزوج الصالح.

(١) التومائية: نظرية توما الإكوينى اللاهوتية والفلسفية (المترجم).

ـ ربما، لكننى لـن أتزوج. وإذا حـدث وتزوجت فـإننى على ثقـة بأن زوجـتى سوف تخوننى. لقد خلقت لأكون زوجاً مخدوعاً...

وافترت شفتاه عن ابتسامة مفعمة بالمرارة.

كان باولو ريچيه مرتبطاً بهم. وقد أصبح الآن يشارك كل مساء فى مناقشاتهم العقـيمة التى كان تـيسيانو يطلق عـليها «الجريدة الناطـقة». كان يهتم بالحـركات الأدبية فى المدينة. اعتبر أعداء تيسيانو أعداءه، واعتبر أصدقاءه أصدقاء له.

أما خوسـيه آوجستـو فلم يعد يأت إلى المقهى. وخلال الأيام التى أمـضاها فى «باهيا» لم يكل عن ذم بيدرو تيسيانو، لسبب بسـيط فهم يثرثرون بحماسة عندما يأخذ خوسيه آوجستو كعادته فى التماس الاعذار والدفاع عن «روى باربوزا».

قال تيسيانو مبتسماً:

ـ فى باهيـا، ليـس هناك سـوى قـديسـين اثنين: الـقـديس «بونفـيم» «وروى باربوزا»... وهى تضم أحدهما إلى قلبها بلهفة.

ثم أردف معلقاً بخبث:

ـ أما أنا فلا أحب أياً منهما...

صالح باولو ريچيه:

ـ حسناً ! حسن جداً.

ثم ضحك كثيراً من سحنة خوسيه آوجستو المذعورة.

لم يعاود الدبلوماسى الظهور. ولم يفكر فيه أحد.

* * *

فى باهيا، كان باولو ريچيه يدهش لكل شىء. كـانت مدينة «توميه ديه سوزا»

تعطيه انطباعاً بأنها واحدة من هذه المدن فى سبيلها إلى الانهيار، حيث يموت كل شىء، شيئاً فشيئاً، فى أسف بالغ على نهاية الحياة.

كان قد وصل إلى باهيا فى يوم مثير، وعلى نفس السفينة كان بعض أعضاء المعارضة ذاهبين، فى قافلة للدعاية الانتخابية، يلقون الخطب فى الشمال. عندما استقل السيارة مع «چولى»، كان الخطباء يتوجهون نحو المدينة. وكانت الحشود الشعبية تقتفى أثرهم. فقد كان على رأس القافلة أحد النواب يعتبرونه أكبر خطيب فى البلاد. وأى برازيلى على استعداد لأن يضحى بحياته من أجل بضع قطرات من البلاغة.

اختلطت سيارة باولو بالموكب، وكان من المستحيل اختراق حشود الجماهير.

لم يضايقه ذلك بل كان يسليه. إنه شىء جديد. بالنسبة له أن يستمتع بمشهد الجماهير وحماستها. كان الموكب يتوقف كل خمس دقائق. وكان بعض الاشخاص المتحمسين يخطبون فى الجماهير قائلين: «لابد من وضع بطاقات بيضاء فى صندوق الانتخابات الأسود». وكان باولو ريچيه يضحك من هذه العبارة وكان من الممكن أن تفتك به الجماهير. وعلى قمة «لاديرا» فوق الجبل توقفت الجماهير للمرة السادسة. وألقى رجل مخمور خطبة وهو يجتهد فى الحفاظ على توازنه. (ولكن أى تضحية لانقدمها للوطن؟).

وانطلق يهتف:

ـ إننى أتحدث باسم أوباش الشوارع! أنا الناطق بلسان المتسولين والعميان الذين يطلبون صدقة، باسم العاجزين (سنده أحدهم حتى لايسقط)، باسم وحل الطرقات، والعاهرات... وبلسانى أيها المواطنون المحترمون فإنكم توجهون التحية إلى المواخير والمستشفيات وقذارة الحوارى...

رد أكبر خطيب في البلاد بتأثر على تحية العميان والعاجزين وبنات الهوى ووحل الشوارع...

كان الموكب يتزلزل من جراء التحيات والصيحات.

قال باولو ريچيه لچولي:

ـ إنها بلاد الكرنفال يا بنيتي.

وشعر أنه غريب، غريب جداً عن شعبه. وبدأ يفكر أن باستطاعته أن يتوه في البرازيل...

* * *

بعد أن ترك چولي في أحد الفنادق (لأن چولي كانت تتبعه منفعلة في سورة من اللذة والإثارة جعلته يفقد صوابه) ذهب باولو إلى «جارسيا» حيث تقيم أمه في بيت ريفي كبير. لم يكن أحد في انتظاره، ولم يخبر هو أحداً، لانه أراد أن يجعلها مفاجأة. طرق الباب وفتحت خادمة شابة. تأملها من شعرها إلى أخمص قدميها وهو يبتسم. كان قلبه يخفق بين ضلوعه فبعد سبع سنوات من الغياب سوف يرى أمه العجوز التي يحبها. أخذه التأثر وهو يتأمل الخادمة الشابة جامدة في مكانها. لقد كان الابن الضال الذي يعود إلى البيت الأبوي. من يدري إن كان سيقضي حياته هنا من الآن فصاعداً؟ إن باريس لم تكن تعني بالنسبة له معنى الحياة. لقد أشبع هناك غرائزه فقط. كان يشك أن الغريزة تشكل السبب الأوحد للكائن وللوجود. كان، وهو على الباب يبتسم للخادمة، يفكر أنه ربما يجد السعادة في هدوء هذا البيت. وفكر في چولي. إن چولي تبدو له كعلاقة تربطه بباريس... سوف يهجرها.

ـ ماذا تريد ياسيدي؟

أفاق باولو ريچيه.

ـ هل تسكن هنا أرملة السنيور جود وفريدو ريچيه؟

ـ بلى ياسيدى.

أزاح باولو الخادمة جانباً، ثم دخل إلى البيت. عبر البيت كله تتبعه الخادمة مندهشة. فى الفناء، كانت أمه تلقى بالحبوب إلى دجاجة صفراء. (فكر ريچيه فى أنه سوف يربى دجاجاً). رأته أمه وعرفته:

ـ ابنى!

ـ أمى!

وفى نهاية فترة ما بعد الظهيرة، بعد أن حكى بالتفصيل حياته فى باريس لأمه ولبعض الأصدقاء الذين جاءوا يسلمون عليه، شعر أنه يفتقد چولى.

٤

انتصر الجسد وقاده نحو چولى. الجسد، وحده الجسد. وذلك بالتحديد لأن چولى لا تعرف إلا الغريزة، ولاتعرف شيئاً آخر، ولا يكفيها سوى إرضاء جسدها... وباولو ريچيه يعرف الأمر تماماً، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يبتعد عن چولى. بل وأكثر من ذلك، كان يعطيها الحق. إذا كانت ترغب فيه فذلك علامة على أنها تحبه. الحب لا يتعدى إرضاء الرغبات... إنها مسألة سيكولوچية لا أكثر. ضرورة طبيعية. ومسألة العواطف هذه؟ محض اختلاق من أناس يحاولون إخفاء الحب فيجعلونه بذلك أكثر إثارة.

ومع ذلك، كانت تراوده فى بعض الأحيان أفكار غريبة. ففى تلك الأوقات، كان يستشف بعض الحقائق فى تأكيدات ريكاردو براس. ربما يكون فى الحب شيء غير الغريزة. الحب ليس فقط أن نضع أنفسنا فى السرير، جنباً إلى جنب، وجهاً لوجه، فى عراك الأذرع والعواطف.

إن رتق جورب خمشته قطة سوداء (ارستقراطية جداً لاتنام إلا على الوسائد، ولا تأكل الفاصوليا السوداء)، وقول كلام لطيف، والغيرة من الابتسامات التى ترد على غزل المارة، والتشاجر حول اسم المولود الأول. كل ذلك أيضاً من الحب، كما كان ريكاردو يؤكد بصيحات عالية، وقد احمر وجهه. وأخذت نظارته تتأرجح على طرف أنفه.

كان يواصل محتداً:

ـ بل إن ذلك هو الحب الحقيقى، الحب الوحيد... السعادة... إن إرضاء الجسد لايمنح السعادة لأحد.

ـ ترهات.

هكذا أجابه ريچيه الذى لم يرد أن يوافق صديقه حتى لايساوره الشك فى حب چولى. إذن لقد ولدنا من أجل هذا الحب... أهو غاية حياتنا؟

ـ بالضبط. معنى الوجود. إن الغاية توجد فى الحب. لكن فى الحب الذى أعنى: «الحب ـ العاطفة».

أما خوسيه لوبيز الذى كان يفصل فى كل المسائل فلم يبد موافقة ولا اعتراضاً.

أصدر حكماً وسطاً... لابد أن يكون الحب مزيجاً من العاطفة والجنس. لم يكن موافقاً على القول بأن الحب هو غاية الحياة...

صاح ريكاردو مدافعاً عن وجهة نظره:

ـ ما هى إذن؟

ـ وهل أعرف!؟

وتجرأ چيرونيمو قائلاً:

ـ ربما يكون الدين... الله...

واستشاط تيسيانو غضباً مما يعتبره حماقة:

ـ الدين، وماذا أيضاً يابنى! إذن غايتك، غايتك كإنسان ذكى هى نفس غاية كل المغفلين؟

وألح چيرونيمو قائلاً:

ـ ولكن التومائية...

ـ التومائيـة عبارة عن تجديد للكاثوليكيـة. وفى النهاية فإن الكتاب التـومائيين والقساوسة المثقفـين سيجدون أنفسهم يشتبكون فى صراع جـسدى مع المتعصبات العجائز.

انكمش چيرونيمو فى كـرسيه بعد أن أفحم. كان يشرب قـهوته بينما يحاول إخفاء وجهه. تدخل خوسيه لوبيز لإنقاذ چيرونيمو:

ـ من يدرى؟ ربما...

ـ إن الأديان هى نفاية الأساطير، إنها أكاذيب ... (١)

ـ ليست الحقـيقة التى تمنح السعادة. إن الإنسان عليـه أن يصل إلى السعادة من أقصر طريق. والدين من الممكن أن يجلب السلام، البهجة...

أطلق بيدرو تيسيانو عباراته الرنانة:

ـ إن السعادة تكمن فى الشقاء نفسه، فى عدم الرضا. إن عدم الرضا هذا، هذا الشك، هو ما يجب أن تكون عليه فلسفة الإنسان الموهوب. الصوفية دائماً.

أن ينفى عندما يؤكد، ويؤكد عندما ينفى. النهاية هى ألا يصل إلى نهاية.

ـ كل ذلك قديم ياتيسيانو، ولـم يعد صـالحاً اليوم... اليوم، نريد أشياء جادة، عملاً نافعاً.

---

(١) رأينا أن ننقل هذه الآراء كمـا وردت على لسان الشخـصيات، والتى يريد الكاتب بها أن يعـبر عن التـخبط الفكـرى الذى كان سـائداً فى تلك الفـترة فى البـرازيل. وإن كنا نرفض مـثل هذه الآراء كلية. (المترجم)

ـ وهل هذه الجدية جـديدة؟ قد أراد سقراط أن يكون جـاداً. ارسطو والقديس توماس وغـيرهما مما لايحـصى من الرجال كانوا جـادين... إن غاية الفنان هى أن يحيا لا أكثر... الحياة من أجل الحياة، بالضرورة، لأننا ولدنا...

كان خوسيه لوبيز يفكر. فكر كثيراً. هل بيدرو تيسيانو على حق؟ كان يحاول أن يتحرر من تأثير الآخر. كان يتمتم:

ـ إنها نكات!

كان چيرونـيمو سواريس فى دخيلـة نفسه يتأمل تيـسيانو مبهـوراً بمظهره الذى يبـدو كشيـطان، وهو يرتب الشعيرات البـيضـاء القليلة التى تحاول الإفـلات من سجن قبعته، استعداداً للطيران.

كان ريچيه أثناء عودته يتذكر أول نزاع له مع چولى. كان ذلك أثناء الكرنفال فى ريوديه چانيـرو. كـان قد خـرج وظل فى الشـارع حتى الـساعـات الأولى من الصباح وعندما عاد لم يجدها... كان يتـذكر كيف كان يتوقع ذلك (يتوقع، لابل كان يدور حـول نفسـه...) كانت ليلة فظيـعة. الفراش خـال، والملاءات البيـضاء كانت توحى له بأنه سرير موتى...

توقف الاتوبيس وتوقفت أفكار باولو كذلك. كان يتأمل صف البيوت ونخيل «كامبو جراندى». كان كل شىء ينضح بأحزان ما بعد الظهيرة.

كانت تجلس بجانبه فـتاة نحيفة ذات عينين واسعتين ملتـهبتين، تتصفح ديوان شعـر. حاول أن يقرأ عنـوان الديوان «أس بريمـا فيـراس» للشاعـر «كـازيميـرو ديه آبرو». ابتسم. لابد أن تكون هذه الفتاة رومانتيكيـة... لابد أن لها حبيبا يكتب الشعر. وربما لديها ديوان من دواوين ريكاردو براس. أراد أن يسألها عن ذلك. هم أن يفتح فمه. ولكنه وضع يده على فمه بحزم. يالها من فكرة ساذجة! من المؤكد

أن الفتاة لا تعرف من هو ريكاردو براس. ولابد أن يكون صديقها موظفاً فى محل تجارى.

عاود الأتوبيس المسير، واستعاد رجيه خيط أفكاره. لم تصل چولى إلا فى الصباح. فى البداية، لم يقل لها كلمة واحدة. وأخيراً سألته هى لماذا. فاستشاط غضباً وطلب منها أن تذهب إلى الجحيم! لقد أمضت الليل تضاجع آخرين، ومن المؤكد أنها ضاجعت أول شخص وقعت عليه، وها هى تسأله لماذا هو غاضب. فلتذهب إلى الشيطان ...!

سألها متهكماً ضاغطاً الحروف بين أسنانه:

ـ كيف كان؟ أسود أو خلاسيا؟ قويا؟

دافعت عن نفسها بأن لا مبرر لغيرته. إن هذا سخف... فهى فى نهاية الأمر لم تضاجع أى إنسان. لم تخنه. بل كانت ترقص وتصرخ وتتلهى. وليس فى ذلك خيانة. لماذا يغضب إذن.؟

هو أيضاً لم يكن يعرف. فإذا كان الحب لايتعدى مسائل الجسد والعلاقات الجنسية فما سبب شكواه؟ إنها لم تضاجع أحداً آخر، وهو يصدقها لأنها لم تكذب عليه.

وفى الأتوبيس، أقر باولو بنظريات ريكاردو. لقد كان غيوراً من العبارات والابتسامات التى كانت چولى تغدقها على زملائه فى اجتماعاتهم. إن الحب لا يقف عند حدود الامتلاك... ولكن إن كان الأمر كذلك فمعناه أنها لاتحبه...

توقف الأتوبيس وهبطت امرأة سمينة. تنبه باولو ريچيه أنه تخطى منزله فهبط تاركاً أفكاره هناك. على باب البيت الريفى كانت أمه تنتظره متهللة لتزف إليه ميلاد كتاكيت «ريكارد ينيا» الدجاجة العجوز التى يعشقها كل أهل المنزل، والتى «ستموت من الشيخوخة».

كان باولو ريچيه يستمع لأمه تحدثه عن أبيه الذى لا يتذكره.

كان «جودوفريدو» يمثل بالنسبة له رجلاً بلا مشاكل شخصية. كان له هدف. أحب أباه.

كان، بعد الظهر. وهو يفتش فى أدراج لم يفتحها أحد منذ سنوات، قد عثر على دفتر يخص والده. لم تكن مذكرات بالمعنى المعروف، بل مجرد ملاحظات... قرأ فيها:

«هل تتلخص حياتى فى ذلك: العمل، العمل؟... وهل لا أكون أبداً سوى مالك غنى؟... أليس هناك شيء اخر فى الحياة غير العمل كل يوم، والراحة كل يوم وسط الأسرة؟...»

دمدم ريچيه بين أسنانه:

ـ حتى أبى، حتى أبى....

* * *

كانت چولى ممددة فى السرير تقرأ رواية لـ «ويلى»، وتدخن سيجارة خفيفة تركت الكتاب لأنه ممل. كانت الساعة فى يدها تشير إلى العاشرة مساء. إن باولو على وشك الوصول. كانت تفكر فيه بما يشبه الاشمئزاز.

عندما وصل باولو بدأت على الفور مشاجراتهما اليومية. نوبات من الغيرة لا أساس لها. كان يريد أن يعرف كيف أمضت يومها، وماذا فعلت، وأين ذهبت... لقد ارتكبت خطأ عندما تركت نفسها ترتبط به. فقد كانت تعتقد أن ريچيه عقلانياً، وأنه سوف يسخر من تصرفاتها. باريس مهذب لايبغى إلا اللذة لا أكثر. ولكنها بدلاً من ذلك وجدت نفسها مع إنسان رومانسى، مشبوب العاطفة، فكانت تقول له وهى تضحك:

ـ يا حبيبى الصغير إنك برازيلى قح!

وكانت تردد على مسامعه «مثلاً» سمعته من زنجية سمينة أمام الفندق:

ـ «من لا يعرفك يريد شراءك...»

أفاقت چولى منتفضة عندما دخل باولو ريچيه وقبل شفتيها المتلئتين، ولما لم تستيقظ عض شفتيها.

ـ أوه، تعضنى... وقد عدت متأخراً! فى منتصف الليل!

ـ آه يا حبيبتى! عندى لك خبر... سنذهب يوم الاثنين إلى المزرعة، فى جنوب الولاية. نحن الاثنين فقط، سنظل وحدنا... فى أتم سعادة...

ـ الجمعة والسبت والأحد والاثنين... وهل هى جميلة المزرعة؟ هل هناك غور وأسود؟

ـ لا يا عزيزتى (يضحك) لاشئ من ذلك، ولكن توجد ثعابين..

ـ لن أذهب إلى هناك. إننى أخاف من الثعابين...

تعب فى إقناعها بأنها لن ترى الثعابين ـ فالمسكينة تحيا فى الأدغال!

ـ وإذا لدغنى أحدها... ومت؟

تهلل ريچيه. فها هى چولى أخيراً ليست جسداً فقط. إنها أيضاً عاطفة. فهى تخشى الموت لأنها لاتريد أن تتركه وحده.

قبلّها بعنف.

ـ إن مت يا غزيزتى سأكون بائساً يائساً...

ـ بل أنا التى سأكون يائسة لأننى لن أستطيع العودة إلى فرنسا...

رفع باولو رأسه غاضباً وأخذ قبعته وخرج من الغرفة منذ فعاً وهو يغمغم:

ـ الكلبة! تحن دائماً إلى ماضيها...

وفي الغرفة كانت چولي تفكر:

ـ لقد جن، ما في ذلك شك...

مطت شفتيها اشمئزازاً وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر ونامت.

٥

كانت سفينة الشركة الباهيانية تتأرجح وسط البحر الواسع. وكان إقطاعيو الكاكاو يتحدثون عن الأزمة، وكان الطلاب يتناقشون حول الامتحانات ويخططون لعيد القديس «سان خوان» القادم.

كانت چولى وهى ممددة على الأريكة، ساندة رأسها على ركبتى ريچيه، تقص عليه كيف قضت فى الصين ثلاثين ليلة فى زورق يصعد النهر، وأنها كانت بمفردها مع ستة رجال من الصينيين الأقوياء. عبر باولو عن غيرة شديدة من الماضى. وعن كراهية لهؤلاء الصينيين. ستة وهى معهم، بمفردها. ستة صينيين. لم يرغب فى سماع المزيد.

أنذرته چولى بحزم:

ـ باولو، يا عزيزى. هل تعود إلى طبعك؟...

* * *

وصلا إلى «إيلياوس» فى ساعة مبكرة، فى الوقت المناسب لاستقلال القطار. بعد ذلك كانت المشاهد المتتابعة. شجيرات الكاكاو المحملة بالثمار، ثمار كثيرة صفراء، مليئة بالعصارة.

شغف باولو ريچيه بمهنته الجديدة كإقطاعى. وكان يشرح لچولى زراعة الكاكاو. كان يحدثها عن منطقته عندما كان والده لا يزال حياً، قبل أن يذهب إلى أوربا (كان ذلك منذ سنوات عديدة...)، كان يصطحبه إلى المزارع. وهناك كان يرى آلچيميرو، رئيس العمال، ذا البنية القوية. إنه خلاسى عملاق يقال إنه قتل تسعة كحارس شخصى لجودو فريدو العجوز. فى مرات كثيرة، كان يذهب معه إلى البلدة المجاورة لمشاهدة السينما، وكانا بعد ذلك يغشيان المنازل الحقيرة للمومسات العجائز، ويختلطان بحثالة المدن، الذين يأتون إلى ذلك المكان من العالم ليحكوا عن بطولاتهم فى الحياة.

كان آلچيميرو شجاعاً، ذا سمعة طيبة. وكان يستقبل دوماً بالترحيب. يتذكر ريچيه جيداً أنه فى إحدى المرات ذهب إلى خوانا فى الفندق، وهى خلاسية شابة، جديدة فى المهنة، وكان يميل إليها، وعرف آلچيميرو أن فى غرفتها رجلا آخر فقذفه من النافذة «يا للخوف الذى استولى على باولو». وبعد ذلك ضربها كثيراً.

ـ لماذا ضربتها يا آلچيميرو؟

ـ النساء يجب معاملتهن هكذا يا كولونيلى الصغير. النساء حثالة لاتساوى شيئاً...

كانت چولى تصغى باهتمام. يالهم من رجال...

ـ وهل لايزال هذا الصديق يعيش فى المزرعة؟

ـ لايزال. إنه دائماً رئيس العمال. ولكنه صار عجوزاً...

أصدر القطار صريراً فوق القضبان ثم توقف. هبط ريچيه ومد يده إلى چولى.

رأى آلچيميرو الذى كان يتحرك من مكان لآخر وكأنه يبحث عن أحد.

ـ مرحباً آلچيميرو!

ـ أرنى نفسك يا سيدى! لقد كبرت! بالأمس كنت طفلاً... من كان يتصور... إنهم فى أوربا يكبرون بسرعة.

ـ قل لى يا آلچيميرو، أمعك مطايا؟

ـ نعن يا سيدى، كانما كنت أخمن أن يأتى أحد زيادة. أحضرت دابتين...

يمكنك أن تصطحب صديقاً..

ـ لقد اصطحبت صديقة...

قام باولو بالتعارف:

ـ مدموازيل چولى.

ـ آلچيميرو رئيس العمال فى المزرعة.

قام آلچيميرو فى نشاط بوضع سرج نسائى على بغلة چولى. كانا فرحين فوق الدابتين، يتبعهما زنجى غريب، كله عضلات، عارى الجذع. وخلف السرج كانت البندقية تغفو فى نوم برئ...

صالح آلچيميرو:

ـ «أونوريو» تقدم إلى الأمام، سوف أسير فى الخلف مع السيد.

كانت چولى طوال الرحلة تبدى إعجابها بعضلات ظهر «أونوريو»، الذى كان يتقدم الركب غير مكترث. يمضغ قطعة من التبغ الأسود بين أسنانه البيضاء.

كانت الدواب معتادة على أن تقطع هذا الطريق كل يوم، حاملة أجولة الكاكاو لتتوقف بالضبط أمام البيت ذى الطلاء الأبيض، وفى الأرض الفسيحة كانت دجاجات وديوك رومية تنقر بنشاط.

عاون آلـچيمـيرو باولو عـلى النزول بينما أخـذ «أونوريو» چولى بين ذراعـيه ووضعها على الأرض. قربت رأسها الشـقراء من الصدر الخرسانى المسلح للعامل الزراعى. شمت رائحة الذكر القوية.

فى تلك الليلة، عندما كان ريچيه يضمها بين ذراعـين ضعيفتين لإنسان شديد التحـضر، كانت تـفكر بشهوانيـة فى عضلات «أونوريـو» وفى جسده العـملاق. وذاق ريچيه طعماً جديداً لقبلاتها ولمس حمية زائلة فى عناقها. ونام سعيداً.

* * *

إن باولو ريچيه مفتون بفرنسية، ولأنها لاتحبه فهى ترقد معه فحسب. إن الفتى يريد أن يقنع نفـسه بأن الحب غريزة فـقط... المسكين! المسكين! لايريد أن يزول عنه الوهـم...

أكد خوسيه لوبيز:

ـ ولكن زوال الوهم أمر ضرورى.

ـ إنك تتكلم وأنت فى طمأنينة، خالى البال.

ـ يا براس. إن طمـأنينتى هى نتيـجة زوال الوهـم. لقـد أصبـحت خالى الـبال لأننى لا أنتظر من الحـياة شيـئاً طيـباً. لا شىء سـوى أن تقع أشيـاء أسوأ مما وقع بالفعل. إننى لا أشكو.

ـ إذن فهذه ليست طمأنينة.

ـ وهل هى شىء آخر؟ إن الطمأنينة هى تزييف السعادة...

ـ وهل هذه نهايتنا نحن؟

ـ ربما، ولكن اسمع. إننى اعتقد أنها كذلك. أن نتلاءم مع الحياة.

وأن نحيا كما نحيا.

أكد تيسيانو:

ـ بالضبط، أن نحيا من أجل الحياة فقط.

ولكن خوسيه لوبيز اعترض:

ـ ولكنه يا تيسيانو تناقش معك قبل ذلك وقال إن الدين يمكن أن يمنح السعادة... والآن ينكر وجود السعادة...

ـ ليس ذلك بالضبط. إن السعادة لا تتوافر لبعض الناس. أنت مثلاً يا من تأمل فى العثور عليها فى الحب أصبت بخيبة الأمل. إن السعادة لم تخلق لك. أماچيرونيمو فهو حالة أخرى، أعطه زوجة صالحة وقليلاً من الدين والإيمان بالغيبيات ستجده سعيداً.

ـ هذا صحيح فى حالة چيرونيمو ولكن حالتك أنت؟ إن لديك ذكاء شيطانيا وتقول إنك من الممكن أن تصبح كاثوليكياً.

ـ إننى فى الحقيقة أشعر أحياناً بحاجة إلى عزاء مع الأصدقاء بقدر ما نحبهم، ربما لأننى مخلص. إننا فى حاجة إلى إله طيب يستمع إلينا ويعزينا. ولكن هذه مسألة عواطف. إن عقلى لم يهدنى بعد إلى الله ولن يهدينى قط. أما بخصوص العاطفة فإنى أقهرها.

ـ أنت الذى تقول إنك مطمئن!

توقفت المناقشة عند هذه النقطة عندما دخل جوميز مندفعاً كالريح يتبعه چيرونيمو. جلس وهو يلهث ونادى فتاة البار:

ـ اعطنى بيرة!

أعرب بيدرو تيسيانو عن دهشته:

ـ هه؟ بيرة؟ هل تسمـعون، جوميز يطـلب بيرة. لابد أن شيئاً خطيـراً جداً قد حدث، خطير للغاية.

وأخذ جوميز يشرح السبب:

ـ إننى متحمس!

قاطعه تيسيانو:

ـ الحماسة دليل على السطحية.

ـ لاتقاطع الرجل!

صاح جوميز وهو يلهث:

ـ فكرة، فكرة عظيمة.

صاح ريكاردو:

ـ فكرة؟ لديك فكرة يا جوميز؟ احتفظ بفكرتك يا عزيزى. إنها كنز.

ـ إذهب إلى الجحيم!

إذا لم يعجبه ذلك فليذهب... عجباً ! الرجل يجتهد فى العمل على مصلحة الجميع ويأتى براس ليتخابث...

تدخل خوسيه لوبيز معترضاً:

ـ لا تكونوا أغبياء! إننى مشوق لأن أعرف، احك يا جوميز...

جاءت الفتاة بالبيرة. وطلب جوميز سيجاراً:

ـ «أور ديه كويا»... لا بل «سوبر ديك نمرة ٢».

كانت دهشة تيسيانو بلا حدود.

بعد أن عاد إليه هدوؤه، أعلن جوميز عن فكرته وهو يضرب بقبضته على المائدة:

ـ جريدة يومية! سيكون لنا جريدة يومية!

ـ هه؟

ـ جريدة؟

ـ ماذا يقول جوميز؟

ـ بلى جريدة يومية... «لاستادو دا باهيا»...

لقد كانوا يطمحون إلى امتلاك جريدة. سيصبحون سادة باهيا. ولن يستطيع أحد أن يفعل شيئاً ضدهم. سيكسبون ثروة طائلة. والآن يعلن جوفيز بأعلى صوته بأنهم سيملكون جريدة.

لكن ريكاردو أبدى تشككاً:

ـ حسناً، هذه مجرد فكرة! فكرة...

ـ إنها فكرة في طريق التحول إلى واقع.

تدخل لوبيز راجياً:

ـ فسر هذه الحكاية يا جوميز.

ـ الحكاية أن محافظ إحدى مدن الداخل يريد منا أن نؤسس جريدة. ستكون

جريدة المجلس المحلى للمحافظة... ستكون شركة مستترة. فكل محافظ سيساهم بمبلغ معين، ونساهم نحن بأقلامنا. ستقوم الجريدة بالدفاع عن المحافظين الحاليين وإدارتهم. ماذا تقولون؟

سيكون بيدرو تيسيانو المدير، وخوسيه لوييز رئيس التحرير، ويشكل كل من ريكاردو وجيرونيمو هيئة التحرير. أما جوميز فسوف يقوم بوظيفة المدير المالى ليحقق الربح للجريدة. فى هذه الساعات العصيبة سيقوم بعمل تحقيقات صحفية. إنه مشروع...

ـ فى الحقيقة...

قهقهه ريكاردو قائلاً:

ـ سوف نحطم الأوغاد، سوف نحطم الأوغاد. (الأوغاد هو الاسم الذى يطلقه على الخلاسيين أعدائه). إنك عبقرى ياجوميز، أقصد أن هذا المحافظ عبقرى... واقترح تيسيانو أن يشربوا نخباً على شرف المحافظ.

وطلب جيرونيمو سجائر مؤكداً أنها على حساب «لاستادو دا باهيا».

استغرقوا فى وضع الخطط. بدأوا يحلمون وكأنهم أصبحوا يمتلكون باهيا بين أيديهم. سوف يعملون فى البداية دون سعى وراء الربح. وماذا بعد...

قد يثرون ويصبحون مشهورين فى البلاد وينشرون كتباً. سوف يحيون أخيراً. كان خوسيه لوييز يفكر:

ـ لا أصدق ذلك. من الطبيعى أن تصادفنا الإحباطات والمتاعب... وكان ريكاردو براس من جانبه يرى أن كل ذلك شىء تافه بالنسبة للحياة «العمل وحده لا يكفى. لابد من الحب...»

جوميز وحده الذى كان راضياً. كان يضحك كثيراً مظهراً أسنانه النخرة. انتصب وسار بخطى واسعة. كان على طريق المجد...

* * *

مضت عشرة أيام وهما فى المزرعة. كان باولو سعيداً. كان موقناً أن چولى أصبحت ملكه تماماً. ومن ذا الذى يجرؤ على النظر إلى حبيبة السيد؟ ومن ناحية أخرى، فإن چولى لن تعطى فرصة لأحد من هؤلاء المتوحشين، فهم حيوانات أكثر منهم آدميين.

كان ريچيه كل صباح يمتطى الجواد ويقوم بجولة فى القرية. كان يأتى بالجرائد والمجلات التى كان يقرأها فى المساء، على ضوء مصباح الكيروسين، قبل أن ينام. لم ترافقه چولى قط. وكانت ذريعتها فى ذلك أنها لاتحب أن تذهب راكبة جواد.

فى ذلك اليوم، الذى كان يوم جمعة، ذهب ريچيه مبكراً. كانت السماء غائمة تنذر بالمطر، ومع ذلك، واصل طريقه، وكان يحث البغلة على الإسراع. وفى منتصف الطريق، كانت السحب قد تكاثفت وأصبحت أكثر تهديداً فقرر أن يعود. وعندما وصل لم يجد چولى فى البيت فذهب يبحث عنها فى المنطقة المحيطة.

ماذا تفعل إذن؟ ربما تقطف حبات اليوسفى...

كان ريچيه يسير خالى الذهن فى الممر الذى ينحدر إلى النبع حيث تنتصب شجرة اليوسفى الكبيرة عندما التفت جانباً وبالمصادفة فرأى ما أذهله.

تحت الشجيرات كانت چولى و«اونوريو» متعانقين يتضاحكان. كانت تنورتها مرفوعة تكشف عن فخذيها الأبيضين.

لم يثر ريچيه فضيحة. عاد إلى البيت وانتظر...

عادت چولى عند الظهر. لاحظت هيئة ريچيه الصارمة. خافت أن يكون قد اكتشف الأمر. ولكن لأنها متمرسة على هذا النوع من المواقف فلم تضطرب:

ـ وصلت منذ فترة طويلة ياحبيبى؟

ـ منذ فترة طويلة جداً.

ـ كنت أتنزه بالقرب من هنا. فى الأرض الزراعية.

ـ أعرف. جهزى حقائبك. سوف نرحل غداً.

لم تناقشه، ذهبت إلى غرفتها، وخرج هو يبحث عن آلچيميرو.

وجده بالقرب من أحد القوارب، يشرف على تجفيف الكاكاو.

ـ آلچيميرو، اطرد «أونوريو».

ـ ولكن ياسيدى إنه مدين للمزرعة بستمائة ألف رايس!

ـ تدبر طريقة لكى يسدد المبلغ واطرده. وإذا لم يكن معه نقود، احبسه.

ـ لديه بيت فى البلدة ينفق من إيجاره على ابنته التى تتعلم فى المدرسة فى «إلياوس».

ـ كم يساوى البيت؟

ـ حوالى خمسمائة ألف رايس.

ـ خذ البيت.

ثم ذهب يتبعه آلچيميرو الذى قال بصوت خفيض:

ـ سيدى، إذا أردت يمكنني أن أصفى الرجل جسدياً... أو أضربه ضرباً مبرحاً حتى يعرف أنه لا ينبغى أن ينظر إلى فراش السيد...

ـ كلا، خذ البيت فقط.

* * *

فى الغرفة الوحيدة بالبيت كان هناك سرير واحد. كانت چولى نائمة.

وفكر ريچيه بأنه لا داعى لأن يقضى الليل ساهراً بسبب عاهرة فنام هو أيضاً. كانت وهى منزوية فى ركن تكشف عن أحد ثدييها وكأنها لا تقصد. شعر بقدمه تمس قدم چولى. سرت قشعريرة فى كل جسده. أراد أن ينهض ولكنه لم يستطع. استدارت فى السرير والتصقت به. وأخذ باولو يداعبها. أخذا يتعانقان. ثم بدأ يمارسان الجنس.

وفى لحظة الذروة طلبت منه:

ـ اغفر لى...

ـ كلا!

دفعها بعيداً عنه ثم أطبق على رقبتها. صرخت فتركها. كانت به رغبة مجنونة لأن يهشمها. شتمها. ابتسمت. لكمها. صرخت فيه:

ـ يا جبان!

وضربها كثيراً ثم تركها تبكى فى السرير وخرج. كان يستنشق بنهم هواء الليل. وكان القمر فى السماء يتوارى خلف السحب.

وبدت الريح وكأنها تغنى فى أذنيه مارش الكرنفال:

اضربها

اضربها

٦

شهر من العمل المكثف. «لاستادو دا باهيا» أخذت كل وقته. فمن المفترض أن تصدر الصحيفة خلال الأيام القليلة التالية. كان باولو ريچيه وخوسيه لوييز لايخرجان من قاعة التحرير. كانا يخوضان فى أحاديث تآمرية. كان هذان الشخصان المتناقضان متفاهمين. لم يكن أى منها راضياً عن حياته. كانا يشعران بالحاجة إلى شئ يجهلان طبيعته. كان ينقصهما شيء. وقد انتهيا إلى الاقتناع بأن المرء إنما يحيا من أجل شيء سام. ما هو؟ كان ريكاردو براس يؤكد أنه غاية الحياة، أي السعادة، وأنه يوجد فى الحب. وكان چيرونيمو سواريس يلمّح بحياء إلى أن الدين قد يكون بإمكانه إرضاء حاجة كل الناس إلى هذه الغاية.

مال باولو ريچيه إلى رأى ريكاردو. ولم يشك خوسيه لوييز فى أن چيرونيمو على صواب، ولكنهم لم يبلغوا قط اليقين الذى بلغه الآخرون. ومن بينهم. كان بيدرو تيسيانو ـ وقد أصيب بمرض خطير فى عينيه، جعله يفقد الرؤية ـ يقسم بخبرة حياته البالغة خمسة وستين عاماً أن الإنسان الراقي ليست له غاية، إنما يحيا فقط من أجل الحياة.

ـ ولكن ريكاردو براس إنسان راق ومع ذلك فهو يؤكد أن الحب والزواج والحياة البرجوازية، كل ذلك يأتى بالسعادة.

ـ وهل أحب من قبل؟ هل كان متزوجاً؟ عندما يحب ويتزوج سيصاب

بالإحباط... كان خوسيه لويز فى صف تيسيانو. الحب لا يأتى بالسعادة... ثم أضاف مزهواً:

ـ والشبع؟ مأساة الشبع؟

الآن، لاعزاء إلا فى الأسمى ـ الله والدين.

صاح بيدرو تيسيانو:

ـ لا أشك فى أن ذلك بإمكانه أن يوفر العزاء، ولكن الضعفاء والتافهين هم الذين يبحثون عن العزاء. أولئك الذين لايستطيعون مصارعة الحياة بمفردهم تجدهم فى حاجة إلى الله.

ـ أعترف أننى بمفردى سوف أفشل...

ـ هيا هيا ! إنك تبحث عن معنى لحياتك، أليس كذلك؟ حسنا جداً. إنها مسألة ذهنية. إنك تبحث عن شىء أسمى، هذه الغاية، لأنك غير راض بما هو موجود... لاتريد عزاء... إن مشكلتك نابعة من العقل وليس من القلب...

ـ غير صحيح. إنها تتعلق بالقلب أكثر من العقل. ولتكن متأكداً أن القليل من العقل الذى بداخلنا هو الذى يبعدنا عن السعادة... سيكون ريكاردو تعساً فى الحب لأنه سوف يلاحظ أقل عيب فى زوجته، عندما تقوم بطهو الطعام أو تنظيف المنزل. أما ريجيه فسوف يتنقد انعدام الشاعرية فى الدين، فى بعض الصلوات بالاضافة إلى أشياء أخرى كثيرة.

ـ حسناً! إنك تشاركنى وجهة نظرى. إذا كنتم مثل كل الآخرين فإنكم ستجدون السعادة فى أى شىء. فى الدين، فى الحب، فى العمل، فى أى شىء. ولكن لأنكم متسامون فلن تجدوها مطلقاً. إن السعادة تخص الحمير والمغفلين. ومن حسن الحظ أننا تعساء.

دخل جوميز الذى كان شاهداً فى قضية فض بكارة. كان أحد أصدقائه قد فض بكارة إحدى الفتيات، ولكى لا يتزوجها صديقه، ذهب هو إلى قسم الشرطة وقال إن المسكينة لاتساوى حتى قرشاً مثقوباً.

ـ وهل حقاً لاتساوى شيئاً؟

ـ وهل أعرف؟ ما أعرفه أن الآخر صديقى!

ـ حيوان!

حكى جوميز ما حدث وهو يضحك. فمأمور الشرطة المغفل أراد منه أن يحلف واضعاً يده على الإنجيل وأن يقول الحقيقة. ذهبوا يبحثون عن إنجيل فلم يجدوا، فأحضروا كتاب «آدوريموس». طلب منه المأمور أن يحلف. وهنا يا أصدقاء أفحمته...

ـ هكذا؟

ـ لقد قلت إننى يجب أن أقسم على الإنجيل، وليس هناك إنجيل. لقد أحضرتم «آدوريموس». إذا لم تجدوا «آدوريموس» فهل كنتم ستطلبون منى أن أقسم على أول كتاب لـ «فيليسيرتو ديه كارفاليو»، أليس كذلك؟

ضحكوا.

ـ إنها جميلة، أليس كذلك؟

ـ جميلة جداً! رائعة!...

خرجوا. وكانت زنجية عجوزاً تبيع الفول السودانى المحمص وقطعاً من قصب السكر. توقف جوميز ليشترى حفنة من الفول السودانى.

ـ لا يليق بمدير تجارى لجريدة أن...

ـ إذن إذهب أنت وازرع الفول بنفسك!

وافترقا.

ـ ستأتى هذا المساء ياتيسيانو؟

ـ لا أستطيع... عيناى لا تمكنانى... حاول تيسيانو أن يبتسم ولكن أسى لا حدود له ارتسم على وجهه المغضن.

جلس فى الترام عائداً إلى المنزل يثرثر مع دونا مرسيدس جارته التى كانت تشكو من زوجها المنخرط دائماً فى السياسة (وبطبيعة الحال فى المعارضة...».

مع ما فى ذلك من المخاطرة بتلقى رصاصة أو ضربة مميتة...

ـ مسكين خوان... الطيب...

كانت تمسح دموعها وكأن زوجها قد مات بالفعل.

دفع تيسيانو بكرم أجرة الترام. وواصل المحصل جولته منادياً:

ـ أيها السادة والسيدات، أجرة من فضلكم!

كان تيسيانو يستمع إليه وهو يفكر فى أصدقائه يمضون حياتهم فى ترديد:

ـ سعادة من فضلكم!

كانت لديه قناعة بأنهم سينتهون مثله متشككين، لامبالين، متعالين على الحياة. سردت عليه دونا مرسيدس خطبة لزوجها.

* * *

عندما وصلت دونا مرسيدس إلى منتصف السلم (سلم طويل بإمكانه أن يصيبك بالسل فى شهرين) بدأت تصيح:

ـ دندينيا! دندينيا!

خرجت على الأبواب كل النساء الساكنات فى غرف السلم بالقرب من الطابق الرابع، حيث تسكن جماعة من البرو تستانت قريباً من السماء. كانت «ماريا ديه لورديس» تصعد السلم بأقصى سرعة لاهثة وشعرها الكستنائى مشعث وعيناها مفتوحتان على آخرهما.

ـ ماذا جرى يا لوردينيا؟

ـ ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ سألت النسوة وقد جحظت عيونهن من الفضول واستولت عليهن رغبة مجنونة فى معرفة مايحدث...

ـ هناك سينما مجاناً، اليوم!

دمدمت الإشبينة (١) بأن لا داعى لإثارة كل هذه الضجة بسبب السينما. لقد أفزعتها وجعلتها تظن أن أحد معارفها قد مات.

اعتذرت «ماريا ديه لورديس» التى نادراً ما تذهب إلى السينما إلا عندما تكون مجاناً. فقد قام المسئولون عن إدارة السينما غلاظ القلوب بإلغاء عروض المساء الرائعة (كان الدخول للسيدات والفتيات مجاناً، بينما يدفع الرجال مائتى ألف رايس والأطفال ستمائة رايس). والآن فإن المالك الجديد، ولكى يعمل لنفسه شعبية، أعاد العروض المجانية (لم يستطع المالك القديم أن يواصل فقد شنت عليه نساء الحى حرباً شعواء حتى باع السينما).

أيدت جوقة النساء «ماريا ديه لورديس»:

ـ معها حق لوردينيا فنادراً ما نذهب إلى السينما... وما هى الأفلام المعروضة؟

ـ أجابت والفرح يتراقص فى عينيها:

---

(١) الإشبينة هى المرأة التى تقوم بعماد الطفل فتصبح بمثابة أم له فى العماد، وكثيراً ما يسمى الطفل بإسمها. (المترجم)

ـ «توم ميكس» «ملك رعاة البقر». إنه فيلم رائع. وبطلة الفيلم هى... لم أعد أتذكرها... هذه الشقراء، فائقة الجمال، صاحبة القبلات الطويلة، القبلات الطويلة جداً... لا أستطيع أن أتذكر اسمها. أحسن. وهناك أيضاً «لماذا تبكى أيها المهرج». فيلم مثير... والفصل الأول من «قطار الموت»...

ـ رائع! رائع!

نست أيضاً أن تذكر فيلم «شووكا ـ شووكا».

سألتها هيلينا:

ـ والجريدة السينمائية؟ هل يعرضون الجريدة السينمائية؟

وهيلينا هذه شقراء فى حوالى الثلاثين جعلت الناس يلوكون سيرتها. إذ يقال إنها تتردد على البيوت المشبوهة... وغالباً ما تشاهد فى الشارع مع عشيق مختلف... كانت تريد أن تعرف إن كانت السينما ستعرض الجريدة السينمائية.

كانت مغرمة بالفونس الثالث عشر ملك أسبانيا الذى يظهر دائماً فى الجريدة السينمائية.

ـ ولكنه متزوج يا دونا هيلينا.

ـ وماذا يهم؟ أن أكون حبيبة الملك ليس معناه أن... اسألى فقط دونا ماريا. (دونا ماريا امرأة عربية نحيفة جداً تستأجر الغرف المطلة على السلم وتعيد تأجيرها من الباطن. وكان المستأجرون يقولون من خلف ظهرها إنها تربح من ذلك ثروة طائلة) فى بلادها يتزوج الملك أربعين امرأة...

ـ أما أنا فلا أريد أن أكون حتى حبيبة أغنى رجل فى العالم.

ـ تقولين ذلك... لكن إذا أظهر لك حزمة أوراق مالية...

ـ إنك تعتقدين أن كل الناس مثلك...

ـ بل أكثر سوءاً... أكثر سوءاً... حتى القديسات المتظاهرات بالفضيلة... وبدأت النساء يعملن بجد وحمية ونشاط لكى يذهبن إلى السينما فى المساء...

* * *

كانت غرف السلم صغيرة للغاية... وهناك، كان يسكن أناس كثيرون! فى الواجهة، كانت دونا ماريا العربية مع صبيين قذرين مشاكسين كانا يثيران الفوضى فى الطابق والسلم بألعابهما. كانت دوناهيلينا تقول عنهما إنهما شيطانان. وفى الغرفة المجاورة، كان يرقد عجوز، موظف فى بنك. كان المسكين يعود فى المساء ويخرج فى الصباح. وكان الجميع يرون فيه رجلاً طيباً... وفى غرفة صغيرة بجواره، كانت تعيش ماريا ديه لورديس وإشبينتها. كانت الاشبينة دونا بومبينيا تعمل بالخياطة، وكانت بما تكسبه يومياً (مبلغ هزيل يقارب خمسة آلاف رايس) تشترى احتياجات البيت واحتياجات الابنة التى ربتها والتى كانت لاتدعها تقوم بأى شيء سوى ترتيب الغرفة والذهاب لشراء الملابس. وفى الغرفة الأخيرة، كانت دوناهيلينا وأختاها «چورچينا» و«بيبيه» يمضين يومهن فى الشجار. كن يعرفن كل أنواع الألفاظ البذيئة. يعملن قليلاً. ولا أحد يعرف كيف تجد هيلينا النقود لشراء الطعام وسداد إيجار الغرفة، بل وفوق ذلك، تشترى ملابس أنيقة. كانت چورچينا قد بدأت فترة من البطالة. وكانت «بيبيه» أصغر الأخوات، والتى لا يزال نهداها فى طور التكوين، تبقى بالمنزل وحدها، تطرز جوارب للأطفال الرضع. (كانت هذه الجوارب الرائجة تباع فى أحد بوتيكات «بايكسا دوس سابا تيروس» على أنها إنتاج فرنسى). وفى الغرفة المواجهة، كانت تسكن عربية أخرى كان لها اسم معقد لذلك تم اختصاره إلى «فيفى». كان لدونا «فيفى» ولد لص صار رجلاً (فى عامه السابع عشر). كان يأتى فقط ليبتز منها النقود التى ينفقها

على ملذاته الفاجرة. كان يمضى وقته بين شرذمة من أفسد الفتيان الذين يحتالون على النساء المسكينات فى هضبة «لاديرا دى تابواو». وعندما يتصادف وينام فى البيت، كان يظل عارياً فى نفس الغرفة مع أمه التى تنام على الأرض (كان الابن ينام على السرير) وكان لايكف عن الشكوى من الحياة التى يحياها. وكان يوجه سيلاً من الشتائم بالعربية. وذات مرة، فلتت منه كلمة بالبرتغالية سمعها الجيران المتربصون:

ـ بغلة... عجوز خبيثة...

رسمت دونا بومبينيا إشارة الصليب.

وأكدت دوناهيلينا:

ـ هذا الصبى ممسوس. سينتهى نهاية سيئة.

وبالاضافة إلى ذلك، كانت الليلة التى يقضيها هناك لايستطيع مخلوق أن ينام، كان يتعارك مع أمه طوال الليل... جحيم!

كانت «بيبيه» وحدها التى تحبه. كانت تأتى له بالحلوى ويجلسان معا على السلم.

كان يقرص طرف ثديها الوليد ويعض أذنها. وكانت تتركه يفعل وقد سرت فى جسدها رعشة.

كانت دونا بومبينيا المدافعة عن الأخلاق تدمدم:

ـ فحش، بذاءة!

لم تكن بومبينيا قد تزوجت أبداً المسكينة، وكانت هذه الأشياء تضغط على أعصابها. كانت عصبية بشكل مثير. وكانت بسبب عصبيتها تتشاجر مع أخوتها، وكانت تجد صعوبة فى الحصول على عمل، هى وماريا ديه لورديس! مسكينة

ماريا ديه لورديس! كانت فى ريعان شبابها تلاقى كثيراً من المعاناة! وكانت أسرتها بسبب خصام مع دونا بومبينيا، لا ترغب فى معرفة أى شىء عنها فكانت ماريا ديه لورديس تشاطر اشبينتها هذا العذاب الذى هو حياتها.

ـ إن حياتى رواية. رواية يكفى فقط كتابتها.

كانت دونا بومبينيا تردد ذلك على مسامع موظف البنك العجوز (كان شاعراً فى شبابه، نشر قصائد فى بعض صحف باهيا. كان يوقعها باسم مستعار: «فيفالدو مورينو) رواية... يكفى فقط كتابتها.

كانت ماريا ديه لورديس وقتها فى السادسة عشرة. جميلة جداً. ذات عينين واسعتين حزينتين، تبدوان وكأن غلالة من الضباب تغطيهما. وكان شعرها الذى يغطى كتفيها ذا لون متماوج بين الأشقر والكستنائى.

ونهدان صغيران ينتصبان تحت قميصها. وشفتان حمراوان تدعوان للتقبيل. كانت لها سمعة فتاة مستقيمة. لم يُعرف لها إلا حبيب واحد، «أوسفالدو» الذى كان يحبها منذ عهد المدرسة. بل لقد تمت خطبتهما. ولكنه مات المسكين! والآن، لم يبق منه إلا بورتريه تحتفظ به ماريا ديه لورديس كآخر تذكار من «خالد الذكر أوسفالدو».

يالها من مسكينة، ماريا ديه لورديس!

٧

فى ذلك المساء، كان باولوريچيه يتناول العشاء مع ريكاردو براس الذى حصل منذ أيام على شهادته الدراسية. تحدثا كثيراً عن كل شىء. عن البرازيل وعن الثورة التى تملأ الصحف. كان باولوريچيه لا يعتقد بأن الثورة ستؤدى بالبلاد إلى الأحسن. وكان ريكاردو من نفس الرأى. فتفاقم الأمور فى كل الأحوال كان أمراً مستحيلاً. «إن البرازيل على حافة الهاوية». عبارة بليغة لكنها حقيقية.

ـ إذن فهى تسقط فى الهاوية! سيكون أمراً طريفاً أن تكون البرازيل فى قاع الهاوية...

انفجرا فى الضحك.

كان ريكاردو، على الرغم من كل شىء، يجد فى البرازيل مشاكل هامة جديرة بالدراسة.

إن أكبر مشكلة فى البرازيل هى معرفة إذا ما كان اسمها يكتب بالسين أو بالزال.

ـ لابل هناك مشاكل أكثر أهمية. مشكلة الشمال...

چيرونيمو سواريس الذى أتى يشارك فى وليمة براس دخل فى المناقشة:

ـ ينبغى أيضا أن نفكر فى سعادة الشعب.. فى سعادة الوطن.. أبدى ريچيه تشككاً:

ـ لا ينبغى للمرء أن ينشغل إلا بسعادته الشخصية. ويوم يكون كل فرد سعيداً، ستكون الإنسانية سعيدة... أما مسألة التضحية من أجل الصالح العام فأنا لا أقرها. والوطن... ليس لدى إحساس بالوطن. لم أشعر أننى برازيلى إلا مرتين. مرة فى الكرنفال، عندما رقصت السامبا فى الشارع، والمرة الأخرى عندما ضربت «چولى» بعد خيانتها لى.

ـ لقد كان تيسيانوعلى صواب، ففى مقالته التى قدم بها «لاستادور دا باهيا» استطاع بحق أن يعرف الوطن.

كان ريكاردو يتذكر المقالة بينما تلى چيرونيمو الفقرة:

«إن الوطن هو المكان الذى يجد فيه الإنسان، كحيوان بائس منحط، ما يتغذى به، ويجد من يضاجع، امرأة كان أو رجلاً. حسب الأفضلية».

ـ شىء جميل!

والحق يقال فإن جوميز غضب وصاح بأن الصحيفة فقدت مصداقيتها. أما خوسيه لوبيز الذى كان يضحك فلم ينتقد إلا الجزء اللواطى. وسخر من جوميز.

ـ أنا، مثلاً، ولدت فى البرازيل ولكن تعليمى كله كان فرنسياً... وما أنا فيه، مدين به إلى فرنسا. أيهما وطنى؟ وإذا نشبت حرب بين البرازيل وفرنسا. مع أيهما أحارب؟...

سأل چيرونيمو:

ـ وما رأيك فى المشكلة السياسية؟ إن الحركة الفاشية تتنامى والدعاية الشيوعية تغطى كل شىء.

أجاب ريكاردو وقد أخذ سمت العالم:

ـ لا أحبذ هذا أو ذاك. وعلى البرازيل ألا تستورد نظماً سياسية. فحتى هذه اللحظة ونحن نستورد كل شيء، حتى الدستور، فهل نجحنا؟ علينا أن نؤمم كل شيء، من نظم الحكم إلى المومسات... لاشيوعية ولافاشية... لا بولنديات ولافرنسيات...

ـ ريكارود، حذار! إن هذا الخاتم فى إصبعك يسبب العدوى: البلاغة... فهأنذا شيوعى... ـ كاد ريچيه أن يختنق بقطعة لحم وقفت فى حلقه.

وتدخل چيرونيمو غير مصدق:

ـ شيوعى، أنت؟ أيها الارستقراطى؟ قل ذلك لأحد آخر...

ـ ولكن يا ريچيه إن الشيوعية رائعة من الناحية النظرية... لكنها فى التطبيق كارثة. المساواة، المساواة... بعد ذلك يقوم العمال الذين يحكمون، بجلد الشعب... وهذه هى الشيوعية فى التطبيق.

ـ من أجل ذلك بالتحديد أنا شيوعى... فالشيوعية سوف تجلد البرازيليين ثلاث مرات فى اليوم، وسوف يمشى الشعب على الصراط... فى البرازيل، أنا شيوعى عملى. إن العلاج الوحيد الناجع للبرازيليين هو السوط...

ـ ها، ها، ها! ها أنت أصبحت تيسيانو آخر.

ـ مسكين تيسيانو، أصبح شبه أعمى ومع ذلك يواصل السخرية من الحياة، متعالياً...

ـ أحياناً، أعتقد أن تيسيانو على صواب وأن حياتنا ما هى إلا سلسلة من التعاسة والإحباط... وأن السعادة لم تخلق من أجلنا...

ـ أن نحيا لمجرد الحياة... ربما، ولكننى لا أريد أن أسلم، لا يزال لدى أمل... طأطأ ريچيه رأسه موافقاً:

ـ وأنا كذلك.

اعترض چيرونيمو:

ـ إذن فأنا مع تيسيانو.

همس ريچيه إلى ريكاردو:

ـ وفقاً لنظريات تيسيانو يكون چيرونيمو الوحيد من بيننا الذى يشك فى أنه سعيد...

ـ ذلك لأنه يخشى أن نحكم عليه بأنه أقل منا...

ثم أخذوا يتحدثون عن النساء.

ـ إذن فقد نسيت «چولى» تماماً يا باولو؟

ـ بلى. فالشهوة يا ريكاردو، وأنا أوافقك تماماً، ليست كل شىء فى الحب...

ـ أخيراً... ألم أقل لك؟ لو كنت تحبها أيضاً بقلبك، مانسيتها قط...

ـ بلاشك... ولكننى أعتقد أن الحب لم يعد له وجود. ربما كان موجوداً من قبل. واليوم، لم يعد هناك إلا الشهوة... التى لا ترضينى، صحيح أن...

ـ لا تزال هناك حالات الحب العاطفى والزواج السعيد والوله...

ـ نعم، فى روايات «بيريز إسكريش».

* * *

وأمام باب السينما المضاءة. كانت المعجزة. كانت عينا «ماريا ديه لورديس» الغائمتين تبتسمان، وكانت شفتاها تبتسمان أيضاً لباولو ريچيه. كان يشعر أن قلبه يغنى أغنية الفرح. وظل هناك يتأملها. يالهما من عينين! واسعتين سوداوين

حزينتين... أخلقتا من الضباب أو من الشك؟ وهذا الشَعْر الكستنائي الذي يحلم بأن يكون أشقر... شلال من الشَعْر (نعم إنها البلاغة، نعم!) شفتان طريتان متعطشتان للحب... على باب السينما، كانت النساء ملتحمات في فوضى، وكان الشباب ينتهزون هذه الفوضى ليداعبوا الفتيات.

همت ماريا ديه لورديس بالدخول إلى السينما. أسرع باولو إلى شباك التذاكر. دفع مائتي ألف رايس وترك «الفكة»... ودخل مع ماريا ديه لورديس دون أن يسمح للجسورين بأن يلمسوها كما يفعلون مع الأخريات.

داخل قاعة السينما، كان العرض قد بدأ منذ قليل. ظلت واقفة بجوار إشبينتها التي كانت جالسة في آخر مقعد في القاعة المزدحمة ـ كانتا قد اتفقتا على تناوب الجلوس. كلما تغير البرنامج تتبادلان الأماكن، فتجلس إحداهما وتظل الأخرى واقفة.

وعلى الشاشة. كان «توم ميكس» الفارس النبيل من الأريزونا يحقق مآثر جديرة بالعصور الوسطى، لكي يفوز بقلب حبيبته. كان باولو ريچيه الذي يقف وراء «مارياديه لورديس» يحدثها كثيراً. كان شعرها يفوح بعطر نفاذ (ثمن القنينة من هذا العطر في بوتيك «سو أو سياس» مائتا ألف رايس. ولكن لا أحد يصدق أنه يساوي أقل من أربعين ألف رايس. فصاحب البوتيك يدعي بأن هذا العطر من البضائع المهربة...)

أما باولو فكان يشكي لها من خواء حياته والحزن الذي تجلبه عليه الوحدة.

«أترغبين في أن تكوني إلهة وجودي؟... أن تصبحي سيدة قلبي...» وأخذ يتغزل في عينيها الجميلتين... وشعرها... وكل شيء فيها. كانت تبدو في مظهر شرقي... وكأنها شهرزاد أتت لتقص عليه حكايات رائعة لتدخل السرور إلى قلبه. إنها جميلة جداً... لابد أن تكون طيبة أيضاً...

كانت تبتسم وهى تشاهد الفيلم. ولكنها لم تكن ترى بوضوح فعلى الشاشة، كان وجه «توم ميكس» يختلط بوجه باولو ريچيه الذى كان يواصل الحديث وراءها...

عندما تغير البرنامج أضيئت القاعة وهمت الإشبينة بالنهوض لكن مارياديه لورديس طلبت منها أن تظل جالسة: «إبقى يا إشبينة، إننى مرتاحة فى وقفتى هكذا.»

خرج باولو ريچيه من السينما وروحه تفيض بالسعادة. كان يود أن يصرخ بملء رئتيه: «لقد وجدت السعادة!» تبع ماريا ديه لورديس حتى منزلها. صعد منحدر «لاديرا دى بيلورينيو» محاذراً أن يتعثر بالأحجار الناتئة فى الطريق.

توقفت الجماعة التى ترافق مارياديه لورديس أمام مبنى عال يوحى بأنه مقبرة. كان السلم غارقاً فى العتمة حيث لا وجود لشعاع واحد من الضوء. على الباب، كانت الجارات يتبادلن تحية المساء. أمام الباب، كان ريچيه يدخن سيجارة ويلف لورديس بنظرة متيمة مفعمة بالحب.

أما هى فكانت فى غاية الأناقة فى ثوبها المتناسق، وكانت تنظر إليه خلسة وهى نشوانة. عندما ذهبت النسوة بادرت دوناهيلينا شبه نعسانة:

ـ هل نصعد؟

صعدتا، وقبل أن تغيبا فى العتمة، داعبت مارياديه لورديس بنظرتها الغائمة البهجة الوليدة لباولو ريچيه.

ظل حوالى نصف ساعة ينتظر ظهورها فى أى من نوافذ الطوابق الثلاثة. لم يكن يعرف أن هذه الغرف البائسة ليست لها نوافذ تطل على الشارع. لاشىء سوى باب يفتح على السلم القذر... وفى النهاية، أصيب بالإحباط وذهب فى الشارع يدندن...

كان الأصدقاء باستثناء بيدرو تيسيانو الذى لم تعد عيناه تجابهان ظلمة الليل ـ كانوا فى الحانة كالعادة. كانوا يستمعون إلى چيرونيمو سواريس الذى كان يقص حكاية مثيرة جداً عن أحد نقاد الأدب فى «باهيا» والذى فوجئ بنقود تصله من مثقف مجهول لكى يقوم بتقريظ ديوان شعر على وشك الظهور. أما ريچيه الذى كان يسبح فى بحر من البهجة فقد أبدى طيبة لم تكن معهودة فيه حتى ذلك الوقت:

ـ هيا. يجب ألا نهتم. بل يجب أن نسامح ونعفو... فى الحياة، علينا أن نغفر دائماً. الرجال الأسمون عليهم أن يحبوا القريبين منهم...

سخر منه جوميز:

ـ والقريبة منهم على الأخص.

ـ دعك من نكاتك الغبية يا عزيزى... لقد قلت ياريچيه...

ـ علينا أن يحب أحدنا الآخر. وألا نبالى بمن هم ليسوا فى مستوانا...

يجب أن نغفر لهم دائماً... إن ما يفعلونه من أشياء غبية ومثيرة للهزء لن يدهشنا... لأنهم أقل منا. إنهم لا يدركون ما يفعلون...

ـ برافو مسيو!

ـ لم أكن أعرف أن لك قلبا كبيرا...

كان خوسيه لوبيز مؤيداً لرأى ريچيه ـ بينما اعتبره «ريكاردو» و«چيرونيمو» «إحدى نكات باولو».

تدخل ريكاردو براس:

ـ لاينبغى أن نغفر للحماقة. لا ينبغى لنا، ولن نستطيع... أينبغى لى إذن أن

أغفر للغباء المطبق لهؤلاء الخلاسيين الذين يصدرون مجلة تسئ إلى قواعد اللغة والأدب في بلادنا؟

الخطأ ليس خطأهم. فليسوا هم من خلقوا أنفسهم أغبياء.

أسف چيرونيمو لأن بيدرو تيسيانو لم يكن معهم ليسمع اكتشاف باولو ريچيه للعواطف النبيلة.

ـ ولكن عليهم أن يفهموا سطحيتهم وألا يظهروها.. إنني أعذر الأغبياء المقتنعين بتفاهتهم. أما أولئك الذين يتصورون أن لهم قيمة فلا...

كان رأى خوسيه لوبيز هو الذى أقنع الجميع:

ـ أعتقد أنه ينبغى ألا نهتم بهؤلاء الناس... وألا نوليهم أهمية... لماذا تفكر فى هؤلاء الأوغاد؟ من الأفضل أن نتجاهل وجودهم...

وأكد جوميز وهو ينفث فى الجو دخان سيجاره:

ـ وهل هم موجودون حقاً؟ هل وجودهم حقيقة؟ إنهما يحيون ولكن لا وجود لهم...

ـ لماذا أنت سعيد جداً اليوم، يا باولو؟

ـ ربما لأنني اليوم قابلت السعادة... من كان يعرف أننى سأكتشف الطريق اليوم... وأن الغاية لم تكن بعيدة عن متناولى...

رد خوسيه لوبيز مندهشاً:

ـ هل تحب يا ريجيه؟ إنك أهل لها. إن من يقولون إنهم عقلانيون مثلك هم أكثر الناس عاطفة.

ـ لا أحد يعرف أين ينتهى العقل وأين تبدأ العاطفة...

ـ إنك عرضة للعواطف المفاجئة... انظر لقصتك مع «چولى». لقد كنت تحب هذه المرأة.

ـ كنت أرغبها. وهذا كل ما فى الأمر.

ـ حذار يا باولو، حذار، لاترتكب حماقة...

لم يكن خوسيه لوييز ليقلق. ففى الحقيقة لم يحدث شيء. لقد غازل فى السينما فتاة جميلة رومانسية. كان يهمس فى أذنها بكلام ساذج. إنها حتى لم تتكلم. كانت تبتسم فقط. صحيح أن ذلك أرضاه كثيراً. ولكن لم يكن هناك شيء ذو أهمية... وعلى الرغم من أن خوسيه لوييز أوصاه بأن يحترز فإن ريكاردو براس فعل العكس اذا نصحه بأن يواصل مغامرته.

ـ ربما يكون ذلك بداية سعادتك. ليس لأحد الحق فى أن يتركها تفلت... أنا شخصياً بمجرد أن تظهر لى المرأة المثالية سوف أتزوج. أؤكد لك أن سيدة السعادة هذه إذا كانت فى متناول يدى فإننى سأتشبث بها...

ـ دعك من ذلك! إن الحب ليس غاية الحياة بالنسبة لأحد. لا الحب ولا الزواج. إن الحب لايقضى على عدم الرضا والقلق. هذا القلق إنه شيء أكثر جدية. أعرف أن قول تيسيانو صحيح. إن المشكلة ذهنية خالصة...

ـ إنك تغير رأيك بسرعة. منذ أيام كنت تؤكد أن عدم الرضا هذا هو مسألة عواطف وقلما يكون من العقل. وأنا أويد ما قلته ذلك اليوم يا أخى العزيز...

ـ إن المسألة خليط من العاطفة والعقل. ولكن العقل وحده الذى يقرر. إننى قلت أيضاً إننا لانصل إلى السعادة عن طريق العقل... وإن العاطفة قد ترضى الإنسان لكن ليس العقل. إن الحب لايحل المشكلة وبالتالى...

ـ إنه يحلها.. إن الأشياء الإنسانية والطبيعية وحدها هى التى تعطى البهجة والسعادة للحياة.. هل فهمت؟

ـ نعم فهمت ولكنني لا أوفق. كل ذلك شيء بسيط. نعم، الفلسفة والمعارف الفلسفية يمكنها أن تمنح بعض العزاء. بل ربما تحل المشكلة. أما أنا فأفكر في حلها على النحو التالى...

ـ الفلسفة، عجباً! إنها الأشياء الطبيعية وحدها: الحب والغريزة والإيمان والعمل هى التى ترضينا... الأشياء المشتركة بين الناس فقط...

ـ كلا. إنها الفلسفة وحدها.

أخذ ريچيه يشرح موقفه:

ـ لقد فشلت فى البحث عن حل فى الغريزة وفى الجسد. وها أنذا أبحث عنه فى الحب العاطفى. وإننى لعلى استعداد أن أبحث عنه حتى فى الدين... لكن ليس فى الفلسفة. فالفلسفة تؤدى بنا إلى فوضى رهيبة. إنها تفتح لنا خمسين درباً ومع ذلك يصعب السير فيها.

ـ بالضبط!

ـ ولكن كيف يمكنك أن تصل إلى الدين بغير الفلسفة؟ إننى أفهم أنك تصل إلى الحب عن طريق الحواس. لكن الدين؟...

ـ سوف أبلغه عن طريق العاطفة. دون قراءة أبحاث، ودون معرفة بـ «ماريتان» أو «القديس توماس». سأكون كاثوليكياً ولن أكون «تومائياً» قط...

ـ هذه مزحة يا باولو. لن تبلغ الحب ولن تصل إلى الدين! ستكون تيسيانو آخر فى الحياة. دونما شجاعة على تحقيق ذاتك. سوف تحيا لتكون موجوداً فحسب...

ـ كلا. سأحاول. لكن لماذا خوسيه لوبيز مستثار اليوم؟

ـ لست مستشاراً. كل ما فى الأمر أن لدى مزيدا من الإحباط. بل إنى لا أؤمن حتى بالسكينة... وتيسيانو يقول إننا «شحاذون السعادة»...

ـ إنه على صواب. إننى أرى أن تيسيانو حل مشكلة قلقنا. وقلق العالم كله اليوم واحتفظ لنفسه بالسر... فهو لا يكترث بالحياة... ياله من سعيد!

ـ هو سعيد! إنه متشكك. إنه يضع نفسه فوق الحياة. يجلس فى صفوف المشاهدين ولايحيا. إنه يعلق ويسخر وينتقد. يدمر وهذا كل ما فى الأمر. إنها ليست سعادة إنما عبادة القلق والتعاسة. إن تيسيانو يرى أن قيمة الجمال تكمن فقط فى الألم. وبما أنه يضع الجمال فوق كل شىء فهو يحب الألم. يعشق أن يكون مهزوماً ويفخر بفشله. لقد كتب ذلك اليوم «النزهة الرمادية لشكوكى»، وهو كتاب نصفه فولتيرى (١) ونصفه أبيقورى (٢). لا ليس أبيقورياً فهو لايشعر حتى ببهجة الحياة. بل يشعر باللامبالاة... ويؤكد أننا سوف نصبح مثله. وكنت أصدقه أحياناً فأصبحت كما ترانى اليوم. نقضت آرائى وأصبحت مثل الاسطوانة التى تردد مايقوله بيدرو تيسيانو على موائد الحانات...

أبدى ريجيه ملاحظة:

ـ من الغريب أننا نصارع بيدرو تيسيانو بينما هو أستاذنا. لقد تعلمنا معه الشك واللامبالاة. ونحن الآن نحارب الشك... وتيسيانو يشيد به.

ـ إنه يشيد به ولكنه يسخر منا، فهو يعرف أننا فى نهاية المطاف سنقر بأنه على صواب...

ـ نعم، فنحن أخيراً مدينون له بما نحن فيه. فهو قبل كل شىء صديق، لامبال أو شكاك ولكنه صديق إلى آخر المدى.

(١) فولتيرى: نسبة إلى فولتير.

(٢) أبيقورى: محب للحياة، منغمس فى اللذات.

ـ إن قانون الحياة عند تيسيانو هو «تعلم كيف تكون صديقاً وتعلم كيف تكون عدواً». أخذ خوسيه لوييز يرثيه فهو شبه أعمى، المسكين! يالها من مأساة حياة هذا الرجل متعدد المواهب، الذى ينتهى هذه النهاية، فلا يستطيع أن يخرج من بيته ولايقدر على القراءة... نهاية فظيعة!

تناولوا الكأس الأخير. ووزع باولو ريجيه الصدقات على الشحاذين والمتشردين الذين، كانوا أمام الكاتدرائية، قد فرشوا أوراقاً على الأرض ـ السرير الأكثر نعومة المتوفر لهم ليريحوا أجسادهم المتعبة...

أطرى چيرونيمو شفقة باولو:

ـ أنت الذى كنت دوماً تحارب الصدقة هه؟ سوف تنتهى يوماً لأن تصبح من دراويش مولد القديس «بونفيم»...

ثم أضاف متحذلقاً:

ـ إن هؤلاء الناس يعانون من المأساة الحقيقية الوحيدة... مأساة الجوع...

قاطعه خوسيه لوييز:

ـ إطلاقاً. إن مأساتنا نحن أكبر بكثير.

ـ إن جوعنا هو جوع الروح.

كان بابلو ريچيه يحلم بماريا ديه لورديس.

سوف يشعر بمتعة هائلة فى صباح الغد، فى مداعبة الكتاكيت وإلقاء الحبوب إلى الدجاج، داخل سور الحديقة... يالروعة الحياة البرجوازية، داخل محيط الأسرة...

وإذا تزوج؟ سيكون له ولد يعلمه أن السعادة تكمن فى الحب...

ظل جالساً فى الكرسى المتأرجح، يتأمل. كان يفكر فى ماريا ديه لورديس، وفى الزواج والأطفال وفى بيدرو تيسيانو.

ثم نهضه وهو يفكر:

ـ سينتهى بى الأمر إلى الانتحار...

تمسحت قطة بساقه. ركلها ولكنه ندم فحملها بين يديه وسار إلى النافذة وأخذ يبثها شكوكه.

ولكن القطة الرزينة فضلت ألا تسدى نصحاً... رفعت رأسها الارستقراطى ونظرت إليه بتمعن ثم أخذت تلحس قدميها. قطة حكيمة عاقلة غسلت يديها من مشكلة باولو ريجيه...

٨

كـان ريـكاردو براس يحب الذهـاب يوم الأحـد إلى قـداس العـاشـرة فى الكاتدرائية. كان ينهض مبكراً، ويرتدى ثيـابه بكل أناقة ممكنة. ولهذا السبب كان خوسيه لويـز ينعى عليه ضـياع اليوم. كـان يصل إلى الكنيسـة فى الوقت الذى يكون فيه القداس قـد انتهى، ويبقى فى الخارج بجوار الباب يستمتع برؤية طابور الفتيات الأنيقات اللاتى جئن يمرغن ركبهن على أرضية المكان المقدس.

ذات يوم، وبينما كـان هناك يرقب فتاة غـاية فى الرشاقة شعـر بمن يجذبه من ذراعه فاستدار:

ـ أهو أنت، انطونيو؟

تبادلا التحـية وتعانقا. إنه المحـامى أنطونيو منديس زميل دراسته، شاب غنى، من أسرة معروفة.

ـ أنطونيو، إنك تـعرف كل أولئك الفتـيات. أتعرف تلك الـتى ترتدى الثوب الأسود؟

ـ طبعاً. إنها فتاة فقيرة... أقـصد أنها ليست غنية. ولكنها أنيقة جداً. أتريد أن أقدمك لها؟

ـ نعم، أريد ذلك.

اتجها إلى حيث تقف الفتاة. كانت ترتدى ملابس أنيقة جداً، وكانت شاحبة ذات عينين وسنانتين. لم تكن جميلة جداً ولكنها جذابة فحسب.

ـ أوه، دكتور أنطونيو! كيف الحال؟

ـ بخير. وأنت يا دونا مرسيدس، كيف حالك؟

ـ بين بين...

ـ وأنت يا آنسة روث، كيف تسير الأمور معك؟

ـ لا بأس، شكراً.

ـ أود أن أقدم لكما صديقى الممتاز، الدكتور ريكاردو براس. لقد تخرج تواً فى نفس الدفعة معى. إنه أيضاً شاعر.

ـ أوه، كلا يا آنستى! بل صحفى فحسب...

كانت روث تعرفه. إنه يعمل فى «لاستادو دا باهيا»، أليس كذلك؟ وكانت ترى ريكاردو دائماً!

ـ أين ذلك يا آنستى؟

بادرت دونا مرسيدس تشرح الأمر:

ـ إننا جيران الدكتور بيدرو تيسيانو...

ـ آه ! مديرى العزيز...

ـ ... وإنك تأتى دائماً إليه.

ـ هذا صحيح. إن تيسيانو صديق عزيز بالنسبة لى.

استأذن انطونيو منديس، وبقى ريكـاردو. إنه ذاهب بالمصادفة لتناول الغداء مع بيدرو تيـسيانـو. أصطحبهـما إلى الترام فـصعدا. وأخـذت المحادثة مـجراها فى هدوء. كان ريكاردو مبتهجاً لأن روث تعرف ديوان شعره.

ـ إذن لقد كونت فكرة سيئة عنى.

ـ كلا، بالـعكس. لقد أعـجبنى الديوان كـثيـراً. أمى التى لم تعجـبهـا إحدى القصائد.

ـ أى قصيدة؟

ـ تلك التى تسمى «باردة». إنها جافة بعض الشىء.

ـ فـعـلاً...! «باردة»... إن أصـدقـائى هـم الذيـن أصـروا على ضـمـهـا إلى الديوان...

كان ريكاردو يفكر فى أشعاره. لقد كان يعتبر «باردة» أحسن قصائده.

وهذه القصيدة بالذات هى التى لم تعجب أم روث...

أمام باب البيت قالتا له «أن يأتى وقتما يشاء لكى يثرثروا».

ـ قد أُسْرِف فى تلبية الدعوة...

ـ سوف نسعد بذلك...

دخل ريكاردو عند تيـسيـانو الذى كان يسكن غـرفة تطل على الشـارع لدى إحـدى العائلات. ولكنه اضـطر أن يرحل ليسكن مـع ابنه المتزوج. لأنه كـان يراه بصعـوبة... كان كل جسـده يؤلمه. سوف يموت عند ابنـه. على الأقل لن يموت وسط الأغراب...

ـ تيسيانو، لقد أتيت لتناول الغداء معك.

ـ إن ما يكفى فرداً هنا، من الممكن أن يكفى اثنين...

* * *

كانت «لاستادو دا باهيا» تعتبر رابحة... ولكنه كان ربحاً عكسياً. كانت تكسب بالكراهية. وكان كل الناس يشترون لاستادو دا باهيا ليعرفوا من الذى ستوجه إليه السهام هذه المرة.لم تكن جريدة فضائح. بل كانت تقول الحقيقة فى شجاعة. والجريدة التى تقول الحقيقة فى باهيا، تقول أشياءا أسوأ بكثير مما تقوله أكبر جريدة فضائح فى الكون.

ولولا وجود المنازعات الدائمة بين «بيدورتيسيانو» و«جوميز» لكان جوميز قد تقدم بشكل رائع. ولكن المديرين الأثنين كانت لهما مناقشات عنيفة. كان جوميز برغبته المحمومة فى الثراء يريد أن يفرض نوعاً من الرقابة على مقالات تيسيانو الذى كان بدوره يرفضها تحت أى مسمى. فكانا يتشاجران ساعات بأكملها. لم يكن جوميز يوافق على مهاجمة شخصيات يمكنها إمداد الجريدة بالمال.

وكان تيسيانو يعلن:

ـ لن أشارك فى جريدة تعتمد على الابتزاز.

وكان جوميز يصرخ بأعلى صوته:

ـ ليس ابتزازاً، إنها سياسة، عليك اللعنة!

كان خوسيه لوبيز يقوم بتهدئة الموقف، وكانت المقالة تنشر دائماً بعد أن يتم تخفيف حدتها. وكان بيدرو تيسيانو يقبل راضياً. بينما يواصل جوميز تذمره:

ـ بهذه الطريقة لن نربح أموالاً أبداً...

لم يكن يفكر إلا فى كسب المال، فى الثراء. ألم يكن ذلك ما يفعله الوغد؟ إنه يسكن الآن فى شارع كبير ويدخن السيجار الغالى (ويقال ولكن أحداً لا يصدق) إنه يرتاد بيوت الدعارة...

كان يحلم وهو ينظر إلى الدخان المتصاعد من سيجاره ويقسم أنه «عندما يمتلك ألفى «كونتوس» سيكون سعيداً.

* * *

أمضى باولو ريچيه عدة أيام يذهب إلى هضبة «بيلورينبو»، ولكنه لم ينجح فى رؤية ماريا ديه لورديس. وبدأت صورتها تتلاشى من ذهنه حتى كان فى عصر أحد أيام، ذاهباً فى سيارته (كان فيما قبل يذهب ماشياً...) فرأى ماريا ديه لورديس خارجة من بيتها. أوقف السيارة وهبط بسرعة. ابتسمت له حين رأته.

ـ ظننت أننى لن أراك ثانية...

ـ وأنا كذلك، لولا هذه المصادفة التى أتت بك الآن... إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لست ذاهباً إلى أى مكان. لقد مررت متعمداً أن أراك. لقد أتيت إلى هنا أياماً متتالية ولم أستطع أن أراك. إنك لاتطلين من النافذة...

ـ هنا، حيث أسكن لاتوجد نوافذ ياسيدى...

ـ لا تقولى سيدى. فذلك فيه من الرسميات كثير...

ـ حسناً. هنا حيث أسكن لا توجد نوافذ. إنها غرفة داخلية. إننى فقيرة جداً... وأنت... تبدو غنياً جداً. سيارتك فخمة جداً! لا يمكن أبداً أن تحب فتاة مثلى. أنا الذى كنت أظنك موظفا فى شركة تجارية سأكون سعيدة معه!...

ـ لاتقولى ذلك... ما اسمك؟

ـ ماريا ديه لورديس سامبايو. وينادونني «لوردينيا». وأنت، ما اسمك؟

ـ باولو ريچيه.

أبدت اهتماماً بما يقوم به من عمل. كانت تحب المحامين كثيراً لكن لاتبدى وداً للصحفيين. لأن دونا هيلينا (التى كانت لها خبرة فى هذه المسائل) كانت تقول إن الصحفيين متقلبون جداً. أرادت أن تعرف أى المهنتين يمارس أكثر: المحاماة أم الصحافة؟...

ـ فى الحقيقة إننى صحفى، لأننى أعمل فى الصحافة، بينما لا أمارس المحاماة. ولكننى صحفى من نوع آخر.

ـ متقلب؟

ـ لا. فعندما أحب، أحب بحق...

وأخذا يتقابلان كل يوم. كان يحب سذاجتها وحزنها، ويحب الحب الذى تمنحه إياه بهذه الرقة التى تظهرها نحوه. لم يقابل أبداً إنساناً أحبه بهذا الشكل. وبدأ يؤمن بأن السعادة تكمن فى الحب.

* * *

رحلت الأسرة البروتستانتية التى تسكن الطابق الرابع. وفى اليوم التالى استأجرت امرأة إيطالية الطابق كله لتجعل منه «بنسيوناً». وعرف باولو ريچيه فقد أخبرته ماريا ديه لورديس. طرأت له فكرة. كانا يتنزهان كالعادة وعند رجوعهما وبينما كانا واقفين على السلم جذبها إليه.

ـ ياعزيزتى، سأعمل لك مفاجأة فى الغد.

تلامس خداهما وقبلها كثيراً.

ـ أوه! باولو...

ـ معذرة ياخطيتي الصغيرة...

على السلم كانت چورچينا تضحك سعيدة لأنها ضبطت ماريا ديه لورديس متلبسة. وخلال خمس دقائق كان كل الجيران قد عرفوا أن ماريا ديه لورديس تقوم في الأسفل بتصرفات شائنة كل يوم مع الدكتور باولو، الشاب صاحب السيارة الذي يكتب في الجريدة.

قالت دونا هيلينا:

ـ إن المتظاهرات بالتقوى هن الأسوأ.

وكانت دونا يومبينيا في غرفتها الكئيبة قلقة، تسمع كل شيء وبها رغبة محمومة لأن تكذبهن وتقتلهن.

عندما صعدت لوردينيا كانت كل ساكنات الطابق يضحكن هازئات. مرت لوردينيا ثابتة الأعصاب.

استجوبتها إشبينتها. كذب! چورچينا هذه تريد أن تثير فضيحة! لقد قبلها ذلك اليوم ولكنه ناداها «بخطيئته الصغيرة» سوف يطلب يدها. وألقت بنفسها في أحضان إشبينتها وظلت تبكي.

* * *

كان ريكاردو براس مهموماً. لم يعد أحد يراه تقريباً. أقام في جريدة «الاستادو دا باهيا» مكتباً للمحاماة. وأمضى أياماً ينتظر أول «زبون». كان يريد أن يتزوج. كان يحب روث وكانت روث تحبه. ولكن راتبه الهزيل كان يمنعه من التفكير في الزواج. كان يتقاضى خمسمائة ألف رايس من البلدية بالإضافة إلى مائتي ألف

رايس من جريدة «الاستادو دا باهيا». لم تكن هذه المبالغ تكفى للعيش، وفوق ذلك فهو لن يقضى كل حياته فى الأعمال الكتابية كموظف صغير. أخذ يتألم وهو يفكر فى الوسائل التى تمكنه من الربح الوفير.

ـ لو أن لى عقلية لص مثل جوميز!

ـ الكلب! ليذهب إلى مكان آخر...

قال له والد روث حينما يصبح قادراً على إعاشة زوجته فليأت ليطلبها. ولكنه لن يتركها تموت من الجوع. كلا! وأخذ ريكاردو يشد شعره من اليأس.

ـ ها أنذا ألمس السعادة فتهرب مني... يالها من لعنة!

كان بيدرو تيسيانو يلقى ببعض اللعنات:

ـ اطلب من السماء ألا تجد المال. هكذا فقط سوف تتجنب أن تكون تعساً... إن الزواج لن يمنحك السعادة يا ريكاردو...

ـ تعس، أنا؟ إننى أعرف نفسى جيداً يا بيدرو.

ـ ولكننى أعرفك أكثر...

* * *

والآن، تكاد المشاغل أن تبتلعهم. ريكاردو يكرس كل وقته «لروث». وباولو ريچيه لم يعد يفكر إلا فى ماريا ديه لورديس. وخوسيه لويز انكب على القراءة أكثر من ذى قبل، وأغرق نفسه فى كتب الفلسفة، فعاش صراعاً عنيفاً. كان موزعاً بين الشهوانية والروحانية. وكانت يبحث عن أصدقائه ليناقشهم لكى يتحرر من عبئه. ولكن أصدقاءه لايظهرون إلا قليلاً. كانوا مشغولين بالحب، وكانوا يذهبون إلى إدارة تحرير المجلة فقط ليقدموا مقالاتهم على عجل. وأصبح

بيدرو تيسيانو لايطاق، وكانت سخريته تزداد مع الوقت، أجابه عندما حدثه عن المسألة:

ـ إن الروحانيين لايعرفون الروح، والماديين لا يعرفون المادة. إن الشك هو الموقف الوحيد. ها أنت ترى الفوضى الحديثة. بل إننى أنا المتشكك أنخرط فيها وأشعر بها، ولكنها مع ذلك لاتهزمنى.

ـ ولكن ألا تشعر بالقلق؟ ألا تشعر أن شيئاً ينقصك؟

ـ أشعر بالقلق والشك. ولكنى على العكس منك، لا أبحث عن حل لهذا القلق وهذا الشك بل لقد جعلت منهما غاية حياتى. ففيهما توجد سعادتى. واليوم الذى أتوقف فيه عن الشك، وأعثر على اليقين، سيكون من المستحيل علىّ أن أحيا.

ـ كل ذلك قديم ياتيسيانو. إن جيلك يقدس الشك، أما جيلى فيحاربه.

ـ وذلك يعنى ببساطة أن جيلى أرقى من جيلك.

ـ إن حال جيلنا هو نفس حال أدب ما قبل الحرب وأدب ما بعد الحرب... أحدهما أدب ألفاظ والآخر أدب أفكار.

ـ ليس ذلك تماماً، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإننى مع أدب ما قبل الحرب. فأنا عندما أقرأ مقالة فإننى لا أريد أن أعرف ما إذا كان كاتبها لديه أفكار جيدة أم لا، أو إذا كانت المقالة مفيدة أم لا. ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان كاتباً أم لا، يكتب جيداً أم لا. ولكن الحقيقة أن الأدب الأناتولى (١) به أيضاً أفكار جيدة ويقدم حلولاً، ويوصى بأن يشك المرء دائماً. أهذا حل أم لا؟ إنه يضع الجمال

(١) أناتولى: نسبة إلى أناتول فرانس، الكاتب الفرنسى (١٨٤٤ ـ ١٩٢٤). (المترجم)

فوق كل شىء. إنكم تقبلون فكرة الله لأن الله نافع. ونحن ننكرها لأننا وجدنا أنها لاتحقق مثالنا الجمالى.

ـ إنكم أنانيون للغاية، ذاتيون أحياناً.

ـ أما أنتم فتمارسون الأنانية فى أحقر صورها: النزعة الإنسانية. نحن نريد ارستقراطية الذكاء والروح، وأنتم اليوم تدافعون عن أرستقراطية القوة. إنكم مسئولون عن إفلاس الذكاء... إن الثقافة وحدها هى التى لها قيمة، لأن الثقافة وحدها هى التى لها فائدة.

ـ ولكنك فشلت.

ـ نعن، لأن كل نصر فى الحياة هو فشل فى الفن...

ـ لقد مضى وقت التناقضات ياتيسيانو.

ـ فعلاً، وجاء وقت تقديم الحساب...

* * *

استيقظت ماريا ديه لورديس وهى تغنى. كان صوتها عذباً يرن فى كل الطابق. أطلت برأسها من النافذة على سطح الجيران. وفى نافذة الطابق الرابع، كان شاب يقرأ باهتمام وعرفته ـ

ـ باولو!

ـ لوردينيا! ألم أقل أننى سأعمل لك مفاجأة؟ لقد استأجرت غرفة هنا لأكون أكثر قرباً منك...

وأتى فى المساء إلى السلم ليثرثر معها. كانت الظلمة تعم المكان. قبلها كثيراً. وانزلقت يده تحت قميصها ووصلت إلى ثدييها. وتركته يفعل. ثم تعانقا.

ـ باولو...

ـ حبيبتي لوردينيا...

تواترت الأيام على هذا النحو، والحي كله لا يتحدث إلا عن فضيحة حب الشاب الغني وماريا ديه لورديس. كانت جورچينا تؤكد أنها فوجئت على السلم بأوضاع فاحشة لاتوصف. وكانت تحكي لصديقاتها عن أشياء مذهلة. كيف عرَفت هذه الأشياء؟

كانت تراقبهما، هي والأخريات، من خلف الباب. كان يأتي ويأخذها على ركبتيه وكان يقبّلها ويدعك ثدييها. كن يتساءلن كيف لا تزال عذراء...

دمدمت دوناهيلينا:

ـ أليس هناك مكان آخر... المتظاهرات بالتقوى... المتظاهرات بالتقوى... لم تعر ماريا ديه لورديس أذناً لهذه الأشياء، وكذلك فعلت إشبينتها. ولكي يخرس باولو ريچيه ألسنة الجميع طلب ماريا ديه لورديس للزواج. وقامت هي بدافع الثأر بتقديم شيكولاتة لكل سكان الطابق، واستمتعت بالتهاني المفعمة بالحسد. ولكن في المساء، عندما تأوي إلى الفراش كانت إشبينتها تسمعها تبكي كثيراً، ولم تكن تسألها عما بها. إنها الفرحة بطبيعة الحال. لكن ماريا ديه لورديس وحدها التي كانت تعرف لماذا تبكي. فلم تكن لديها الشجاعة لتقول لخطيبها عن ذلك الشيء الذي يعذبها...

٩

كانت ماريا ديه لورديس بمفـردها تسترجع حياتهـا تمر أمامها كفـيلم سينمائى. كانت تتذكر الوقت الذى أمضته مع أوسفالدو. لم تكن بلغت الخامسة عشرة.

مجرد طفلة لم يكن لهـا من الحياة إلا مفهومـاً غامضاً مما يتعلمه التـلاميذ على مقاعـد الدرس. كان أوسفالدو قد دخل عـامه الثامن عشر حـينما دخل لأول مرة أحد المواخير. وعرف ما هو الجـسد. لكن فى عجلة ودون تفكير. وبدأت خطوبته لماريا ديه لورديس (خطوبة أطفال) تأخذ منحنى آخـر. وهى، بكل سذاجة، سلمت نفسها إليه.

ذات يوم ـ إنهـا تتألم كلمـا تذكـرت يوم سقـوطها ـ صـحبـها إلى غـرفتـه، وخرجت من هناك سعـيدة. ظلت فترة طويلة تجهل معنى مـا حدث. لم تعرف إلا عندما ذهبت لتـسكن فى «بولورينيو»، ومن خلال الأحـاديث مع هيلينا وچورچينا فهمت أن البنت التى تسلم نفـسها لرجل لاتستطيع الزواج، لأن التقاليـد تعتبر أن الشرف يكمن فى الجسد الذى لم يمس.

ظلت تحـتفظ بسرهـا فى صمت. وعندمـا بدأ بالووريچيـه يحبهـا بدأت هى تعانى. لم تكن لديهـا الشجاعـة لتكشف له عن سرها الرهيب. وكان هو غـيوراً

جداً... حتى من أوسفالدو الذى مات (بعد أن استهلك رئتيه فى المواخير) كان يغار - ماذا سيحدث عندما يعرف الحقيقة! ولكنها ستقول كل شيء . سوف تخبره حتماً، آجلاً أو لاحقاً... لماذا تخونه؟ لم يستطع باولو ريچيه فهم السبب وراء أحزان ماريا ديه لورديس. لم يصدق أى من أصدقائه حكاية خطوبته. ولاحتى ريكاردو براس... إنها نكتة من باولو، يرددها... خاطب هو؟ ها، ها، ها!

كان جوميز يضحك بجنون:

- ألا تجدون ذلك مضحكاً؟

ومع ذلك كان باولو ريچيه خاطباً. وكان لايريد تأجيل الزواج. سوف يتزوج فوراً حتى لايدع السعادة تفلت منه. سوف يقضى بعض الوقت فى أوربا... كلا، ليست أوربا. لن يعود إلى أوربا حيث تعلم الشك. الآن وقد حل مشكلة حياته ووجد غايته، لن يعود إلى بؤرة اللامبالاة والضجر هذه... سوف يذهب إلى أرضه. بالنسبة له، لن ينتهى شهر العسل أبداً... ثم ماذا؟ بعد السعادة فى كل الأيام... ماذا بعد؟ هذه السعادة نفسها.

كان بيدرو تيسيانو يرشف قهوته في جرعات صغيرة حين سأل:

- ألن يشبع باولو ريچيه من ذلك الهناء العائلى؟

- كلا ياتيسيانو. فحتي اليوم لم أفعل شيئاً سوى البحث عن السعادة. ووجدتها. فهل سأملُ منها؟

وأبدى ريكاردو براس شكوكه:

- لكن أحقاً خاطب أنت؟

- نعم يا ريكاردو. أنا خاطب منذ أيام.

ومن هى الخطيبة؟

ـ فتاة قابلتها فى الحياة. فقيرة جداً لكنها طيبة جداً.

وتدخل خوسيه لوييز موضحاً:

ـ خلاسية من عائلة مجهولة. لم أكن أتصور أن يسقط باولو إلى هذه الدرجة من الغباء...

ـ اسمع ياخوسيه. سأقول لك شيئاً. إذا تكلمت ثانية عن خطيبتى بهذا الشكل، فلن تكون أى علاقة بيننا.

وبدأ باولو غاضباً، ينهض بحزم ولكن لوييز أجلسه ثانية.

ـ لتكن مشيئتك ياعزيزى. لن أتكلم بعد الآن عن خطيبتك فائقة الاحترام... والآن جاء دور ريكاردو براس فى الانصراف.

ـ إلى أين؟

ـ سأقابل أحد السياسيين البارزين وصل اليوم من بلدتى. حيوان بمعنى الكلمة! وفوق ذلك، من المعارضة. لديه نفوذ فى بعض المناطق. بإمكانه أن يجد لى شيئاً. فأنا كذلك أريد أن أتزوج...

* * *

ـ كل مومس لها مأساة يا چيرونيمو. أتحب أن ترى؟

ونادى بيدرو يتسيانو امرأة كانت تمر فى الشارع.

ـ يابنيتى احك لنا إذن. لى ولهذا الصديق الذى هو «آخر الرومانسيين» كيف

انتهيت إلى هذه الحياة، هذه الحياة الفظيعة التي تعتبرها النساء المتزوجات سهلة... لم تنتظر أن يرجوها ويلح عليها. بدأت تحكي وعيناها منكستان، تعتصر بين أصابعها طرف قميصها الفضفاض. يعتريها شيء من الخجل. جميلة هذه المرأة! عيناها واسعتان زائغتان. وفمها صغير تتراقص فوقه ابتسامة تدعوك في عفوية. لاشيء فيها ارستقراطي. نموذج الفلاحة الجميلة.

مثل كثير من الفتيات... كانت تعيش في «نازاريه» مع والديها. كانت تخيط. وكانت تكسب المال أيضاً. وذات يوم مر رجل غني وأنيق. كان يتنزه في الحي، ولوح لها بالزواج والبيت الجميل والسيارات. في ذلك الوقت كانت لا تزال تعتقد في الرجال. بعد ذلك، تركها ضائعة، وأنكرها أهلها. فجاءت إلى باهيا. تلك هي قصتها، قصة كثيرات غيرها.

ـ لتعيشي مأساة المومسات اللاتي خلقن ليكن ربات بيوت، على كل حال يابنيتي لقد نجوت من مأساة أسوأ. وهي أن تموتي عذراء...

. ضم جيرونيمو قبضته محتقراً تيسيانو. هذا الرجل الذي يروق له أن يسخر من شقاء الآخرين. البائس...

ابتعد بيدرو تيسيانو ببطء. وظلت الفتاة بلا حراك مستغرقة في ذكرياتها. جميلة جداً! أعطاها جيرونيمو عشرين ألف رايس، دون أن يراه تيسيانو.

ـ شكراً. إنك طيب جداً...

* * *

كانت الحانة مزدحمة. وكان البرجوازيون الكادحون يجلسون إلى الموائد، هنا وهناك، يجرعون كؤوسهم باستمتاع. وكان تيسيانو يتكلم بحدة منتقداً جماعة

من السياسيين. كان يتلو هجائية يسخر فيها من مشاهير «باهيا». دخل سكير إلى الحانة وتذرع بأنه لا يطلب صدقة إنما يريد أن يشرب كأس «كاشاسا» (١)...

ناداه تيسيانو وأعطاه عشرة قروش.

ـ خذ أيها البائس، إنها نصف ما فى جيبى.

ـ لن أشرب. لا يا سيدى.

ـ أسكت أيها الأبله! إننى أريدك أن تشرب... يجب أن تشرب. إنك تحب الخمر، أليس كذلك؟ إذن اشرب. لابد للإنسان أن يرضى غرائزه دوماً... إننى أحب السكيرين لأنهم غير تقليديين.

خرج السكير مترنحاً دون أن يفهم.

تدخل خوسيه لوييز ثائراً:

ـ إذن لابد للإنسان أن يكون عبداً لغرائزه؟

ـ أتفضل الإنسان ذا التقاليد؟

كان بيدرو تيسيانو فى ذلك الوقت، يسكن مع ابنه. ضعف بصره كثيراً وكان يشعر بضعف عام. الموت يقترب. لكن ذهن تيسيانو ظل كما هو. فهو دائماً الصحفى المناضل والهجّاء اللاذع.

كان ابنه لا يريده أن يكتب. يجب أن يكف عن هذه الحياة. وأن يظل بالبيت لا يخرج، وأن يترك الثرثرة اليومية. لماذا يواصل الكتابة، كل يوم مقال أو حتى تعليق؟ ومع ذلك يحصل على أجر هزيل... كان جوميز يسرقهم. يدفع لهم جميعاً أجراً هزيلاً. هم الذين يساعدونه كأصدقاء بينما هو يثرى. أخذ تيسيانو يشكو:

---

(١) مشروب كحولى قوى يقطر من قصب السكر. (المترجم)

ـ عندما كنت فى الثامنة عشرة، كان أبى يضايقنى بسبب ميولى الأدبية، والآن فإن ابنى هو الذى...

انضم إليهم ريكاردو براس الذى اصطحب لتوه السياسى المشهور ابن بلدته. ذهب الرجل مسروراً. لأن مقالة «لاستادو دا باهيا» مع الصورة حققت نجاحاً.

ـ لقد وعدنى الرجل بكل شىء! ستفرح روث...

ـ إنكما مغفلين، أنت وريچيه ! هيا تزوجا، وادخلا فى التفاهة التامة. لنكن صرحاء، ستتزوجان لتمتلكا خطيبتيكما ولكن بمجرد أن يتم إشباع غريزة الجنس...

ـ إنك تخطئ تماماً إذا فكرت بأننا نتزوج فقط لنتمكن من مضاجعة خطيبتينا. إننا نتزوج لأننا فى حاجة إلى الحنان. إننا نريد الجنس والعاطفة...

ـ قبل أن تشبع غريزة الجنس ستكون قد أشبعت عاطفتك. لقد كنت أنا متزوجاً و...

ـ إطلاقاً! إننا نشعر أن هذا الحب هو غايتنا.

كان خوسيه لوييز يخبط جبهته. لقد أحضر شيئاً يريد أن يريه إياه. أخذ يستجمع نفسه ثم بدأ يقرأ:

«الآنسة عاطفة. الآنسة عاطفة، أحبك، أحبك كثيراً، أعبدك، لماذا تهرب عيناك من عينى عندما نتحدث؟ لماذا هذا الحزن الذى يجعل خديك شاحبين أحياناً! لماذا لا تحكى لى كل شىء، وتفتحى لى قلبك على مصراعيه؟ آنسة عاطفة تعرفين تماماً أننى أحبك كثيراً...»

ـ من الذى كتب هذا الهراء؟

ـ كلام مبتذل...

ـ إنها يوميات الغد.

ـ أنت الذى كتبت ذلك ياريكاردو؟

ـ لا بل ريچيه. لقد طلب منى أن أكتب يوميات الغد.

ـ باولو ريچيه، الهجّاء اللاذع... العنيف جداً...؟

ـ نعم. باولو ريچيه الذى كتب ذات مرة «قصيدة الخلاسية المجهولة».

ـ ياللشفقة!

ـ لقد ضاع هذا الولد...

عندما قرأت ماريا ديه لورديس يوميات باولو ظلت مستندة بمرفقيها على المنضدة وعيناها مثبتتان على الصحيفة حيث كانت دموعها تتساقط.

ـ سأحكى له عن كل شىء. لاشىء أفعله غير ذلك. إننى أعرف أنه لن يغفر لى، ولكننى سأقول كل شىء. لابد من ذلك.

وسرعان ما فقدت شجاعتها. فقد كان غيوراً جداً... كان يكفى أن تنظر لرجل آخر، ولو بدون قصد، حتى تثور ثائرته. كانت تحبه كثيراً. يا إلهى ! إن لم يغفر لها (كان غيوراً جداً من الماضى!) ستموت من الألم. لن تصمد.

ـ فيما تفكرين يا لوردينيا؟

ـ أوه، «چارديلينا» ! أهذه أنت؟

كانت أخت لوردينيا (لم تتذكرها أبداً قبل خطبتها لباولو ريچيه، الذى هو فى نهاية الأمر شاب غنى. والآن فإنها تعاود زيارتها باستمرار) قد أنهت دراستها كمعلمة. وكانت تحب كتب ماريا ديه لورديس ومجلاتها.

كانت «چارديلينا» تتعجب من أن باولو ريچيه لايريد لأختها أن تغادر هذا المكان الموبوء.

ـ لقد أراد. لقد أراد أن يكون لنا بيتاً. لكن «ديندينيا» بوساوسها هى التى رفضت.

ـ طبعاً. وماذا كان عليها أن تقول؟ عندما يتزوج نعم. فى الوقت الحاضر أنا التى أقوم بمصاريف البيت. وهو، مع ذلك، يعرف أننى على صواب.

ـ ومتى يتم هذا الزواج؟

ـ خلال الشهرين القادمين. إن باولو يريد أن يتزوج فجأة، دون احتفال، ودون أن يخبر أحداً...

ـ ياله من رجل غريب الأطوار! وبعد ذلك، أين ستمضيان شهر العسل؟

ـ لا أعرف. ربما فى باريس، وربما فى الريف...

ـ أتسمحين...

قبل باولو ريچيه يد لوردينيا ثم قبل يد دونا بومبينيا وسلم على چارديلينا.

ـ كيف حالك يا دكتور باولو؟

ـ بخير، وأنت كيف حالك؟

كان باولو لا يطيق أخت ماريا ديه لورديس. كان يرى أن لها رأساً متآمراً وأنف ببغاء. وكان يشرح لخطيبته أن من لهم أنف ببغاء ليسوا ضعافاً.

ـ كنا نتحدث عن زواجكما يا دكتور. متى إذن؟

ـ هذه الأيام. سوف تعرفين يوم زواجنا..

ـ ألن تدعوانى إلى حفل زواجكما.

ـ لا، لسبب بسيط، فلن يكون هناك احتفال. فمجرد أن نتزوج سوف نرحل.

ـ يالغرابة الرجل، يا إلهى! وأين ستذهبان بعد ذلك؟

ـ إلى الولايات المتحدة لنقوم بجـولة... لم أر الولايات المتحدة. وهذه فرصة.

تمتمت چارديلينا بتغنج:

ـ إننى أفضل أوربا، وأنت يالوردينيا؟

ـ أنا؟ مايريده باولو.

نظر كلاهما للآخر. فى عينيها حزن كبير. وفى عينيه فرح كبير...

السعادة بعيدة جداً ... السعادة قريبة جداً.

* * *

أعلن ريكاردو براس:

ـ سوف أذهب لأنام.

وأيده خوسيه لويز وهو ينهض نعسان واضعاً يده على فمه الذى يتثاءب:

ـ وأنا أيضاً.

كـان جـومـيـز قـد انسـحب منـذ قليل. لأنه ذاهب فى الغـد فى رحلة إلى «السيرتاو» فقد ذهب إلى منزله مبكراً.

واقترح ريچيه:

ـ سوف اصطحبك فى سيارتى.

ـ وأنت يا چيرونيمو ألن تأتى معنا؟

ـ لا، سوف أبقى. سأحج اليوم إلى الشوارع... إننى عاطفى...

ابتعدت السيارة وعندما اختفت عند منحنى الشارع. بدأ چيرونيمو يمشى على غير هدى. كان يستعرض حياته قبل أن يقابل تيسيانو وبعد أن قابله. كانت حياته فيما قبل سعيدة جداً... كان يعيش حياة أولئك الذين ليست لديهم مشاكل. فيما بعد، حطم هذا الرجل الغريب كل مقدساته ـ الله والوطن والحب. لم يكن يعرف ما إذا كان عليه أن يشكر بيدرو تيسيانو. ولكن الحقيقة أنه بدأ يشعر بأنه تعس. وكانت رغبة عارمة فى أن يعود إلى حياته الأولى تعتصره. ولكنه كان يخاف من أن يوصف بالتافه... نادته امرأة من النافذة فاستدار، وعرفها. إنها المومس التى تحدثا معها بعد الظهر. دخل.

ـ ألم تعرفنى؟ لقد تذكرتك على الفور بمجرد أن رأيتك.

وسحبته إلى غرفة النوم.

تحدثا معا. كانت لاتطيق هذه الحياة، فكل الناس يسيئون معاملتها، وفوق ذلك فهى لم تتعلم أن تبتسم للرجال، ولذلك فهى لاتكسب ما يقيم أودها. واستولت شفقة كبيرة على قلب چيرونيمو سواريس. نسى أصدقاءه، ونسى بيدرو تيسانو وسخرياته. نسى أن «الشفقة على الآخرين معناها عدم الشفقة على أنفسنا». ونسى أنه «لايجب أن نعانى من أجل الآخرين، وألا نتألم لألمهم. فالآمنا تكفينا».

كانت الفتاة تبكى مسندة رأسها على كتفه. أعطاها مائة ألف رايس وطلب إليها ألا تضاجع أحداً تلك الليلة. دهشت من أنه لايريد أن يبقى، وأنه حتى لم يذهب معها إلى الفراش.

ـ سأعود غداً.

ـ إنك طيب جداً...

(طيب جداً لدرجة أنها خجلت من أن تقبله في فمه، وهو ما كانت تفعله مع كل الرجال. قبلت يديه. وكان هو الذي قبل شفتيها طويلاً.)

كانت السماء مرصعة بالنجوم، وبدا القمر المكتمل كممثلة عجوز وسط فتيات شابات.

كان چيرونيمو يشعر أنه سعيد. بدأ في تلك الليلة يعود إلى حياته الماضية. وبدأ يتحرر من تيسيانو. إذا نجح في ذلك فسوف يبلغ أقصى درجات السعادة. كانت لديه كل مقومات ذلك. كان طيباً وغبياً...

١٠

أثار الإعلان فضيحة. كـانت المدينة كلها تتكلم عنه. بعض السادة المهمين من ذوى الياقات البيضاء (كان هناك بعض الناس تلتصق هيبتهم بالياقات المنشاة التى يرتدونهـا) أدانوا بأعلى صـوتـهم هذه الإهانة التى لحـقت كل العبـاقـرة فى البرازيل. وعندما سمع بها الطلاب نظموا مظاهـرة عدائية ضد جريدة «لاستادوا دا باهيا». ولكنهم عندما علموا أنهم سيواجهون بالرصاص عدلوا عنها.

إن الطلاب، أمل الأمة البـرازيلية، لا يهـاجمون إلا المسـاكين البـؤساء، الذين لايقدرون على الرد. أحدث الإعلان ضجة كـبيرة لدرجة أن أحد النقاد فى «ريو» كتب مقـالاً يعلق عليه. لقد وصفـه بأنه رائع. وفى مقابل صوت العـاصمة توارت «باهيا» واكـتفت بالهمـهمة. كل ذلك بسبب إعـلان نشرته «لاستـادو داباهيا» فى ربع صفحة، تحت عنوان بالبنط العريض:

«نريد رجلاً عبقرياً للفن البرازيلى»

بلغت أصداء الإعلان حتى منـطقة «السيرتاو» حيث كان جومـيز يتجول. وفى إحـدى المدن رفض المحـافظ أن يعطى الإعـلانات المحليـة إلى جريـدة «لاستـادو داباهيا». فـالجريدة قامت بحـملة ضد الوطن ونسيت أن «باهيا»، دون ذكر بقـية البرازيل، بها رجال عباقرة. تعب جومـيز فى الحصول على الإعلانات. عاد غاضباً

إلى العاصمة في وقت كان تيسيانو على وشك أن يدمر له الجريدة. لايمكن أن تمر الأمور هكذا.. إطلاقاً...

* * *

قال له باولو ريچيه:

ـ سوف نتزوج السبت القادم، ونرحل فى نفس المساء إلى نيويورك... كانت ماريا ديه لورديس ملتصقة بكتفه، تبكى.

ـ ماذا هناك يالوردينيا؟ ألست سعيدة؟

ـ بلى، ياباولو. لكن...

ـ ... لكن...

ـ ... أريد أن أقول لك شيئاً.

ـ قولى ياعزيزتى.

ـ ليس الآن. هذا المساء. فهنا كثير من الناس. هذا المساء سنقوم بنزهة وسوف أقول لك...

أمضى ماتبقى من فترة مابعد الظهيرة فى تلهف مجنون. ماذا لديها من أمر خطير لتقوله له؟ لقد كان يشك دوماً فى أنها تحتفظ بسر. وهذا الحزن... وشعر باولو ريچيه أنه فريسة لقلق بالغ. وبدأ يخشى أن يفقد السعادة القريبة منه، وأن يرى نفسه من جديد فى الفوضى بلا هدف. كانت ماريا ديه لورديس تبكى طوال فترة مابعد الظهيرة. فمصيرها سوف يتقرر. سعادتها أو شقاؤها. وجاءها هاجس بأنه لن يغفر لها.

كانت الليلة أجمل من أى ليلة أخرى. ليلة تناسب العشاق. وقبل أن يخرجا

تبادلا قبلات طويلة على السلم. كان لديهما إحساس بأنهما يقبلان بعضهما لآخر مرة. مشياً طويلاً فى الشارع دون أن ينبسا بكلمة. كان قلقاً بسبب ما وعدته ماريا ديه لورديس بأن تكشف له عنه. لم تواتها الشجاعة لتحكى له عن كل شيء. فقرر هو أن يبادرها:

ـ إحك ياحبيبتى الصغيرة...

حكت له وهى تنتحب قصة حبها مع أوسفالدو، وكيف كانت ساذجة فسلمت له نفسها دون أن تعى. إنها تستحق الغفران ولكنها لم تقل له ذلك لأنها تخشى ألا يغفر لها. هل سيغفر لها؟

أما هو الذى كان يتألم ويعانى فقد طلب إليها أن تحكى كل شيء باختصار شديد. شعر أن أضواء المدينة تنطفيء شيئاً فشيئاً، وأن الظلمة تزحف رويداً رويداً داخل روحه. السعادة تتلاشى. كانت المدينة كلها سوداء. تعلقت ماريا ديه لورديس بعنقه تقبل شفتيه وتعضهما. عاد الضوء بعنف إلى المصابيح الكهربية. ولكن روح باولو ريچيه لا تزال فى الظلمة.

قال وهو يشبه السكران:

ـ هيا بنا...

اصطحبها إلى بيتها وتركها على السلم تبكى.

ورحل يستنشق الهواء بملء رئتيه، وبه رغبة شديدة فى أن يضرب المارة، وأن يبصق فى وجه النساء، وأن يتلفظ بألفاظ قبيحة...

استغرب أصدقاؤه هيئته.

سألوه ماذا به. «لاشيء، لاشيء، وليتركوه لوجه الله». طلب من النادلة كأس

«كاشاسا». شرب كثيراً. وفى نهاية السهرة بكى من الغضب، وحكى لأصدقائه عن تعاسته. سأله جيرونيمو:

ـ والآن ماذا ستفعل؟

ـ وهل أعرف! هل أعرف! هل لى رأس لأفكر؟.. لا أريد أن أفكر فيما سأفعل!

ورأى ريكاردو أن أفضل شيء يفعله هو أن يتزوج. أفضل حل. لاشك أن ماريا ديه لورديس مخلصة. عليه أن يتزوج. ألم يكن ضد التقاليد؟

واعترض خوسيه لوييز:

ـ لايمكن هزيمة التقاليد بهذه السهولة. فهناك تسعة عشر قرناً وراءها!

إنها ميراث فظيع...

ـ إنك على صواب ياخوسيه. لا أستطيع أن أهزم التقاليد. أشعر أنها جديرة بحبى. لكنى غير قادر على الزواج منها. إننى حيوان، تركت سعادتى تفلت منى...

اصطحبوه إلى بيته. وظل معه ريكاردو براس لينام هناك، فقد يرتكب حماقة...

تحدثا بقية الليل. قرر باولو ريجيه أن يذهب فى الغد إلى ماريا ديه لورديس ويتزوجها. لِمَ لا؟ ما شأنه بالماضى؟ كان يصارع، ومع ذلك شعر باستحالة أن يقطع الصلة بالماضى وأن يستأصله من ذاكرته. لماذا حكت له عن كل شيء؟لماذا لم تتركه على عماه؟ كان بإمكانهما أن يكونا سعيدين للغاية...

وفى الغد، مر عدة مرات أمام بيتها، لكن لم تواته الشجاعة ليدخل. قال لخوسيه لوييز:

ـ إننى بائس! تعس! ضيعت سعادتى بسبب خطأى! لأننى لم أنجح فى هزيمة التقاليد! أبله، مغفل أنا...

* * *

كان جـوميز فى حاجـة إلى من يذهب إلى «ريو» لاجراء مقابلات مع زعـماء الحركة الثـورية الظافرة. وعرض باولو أن يذهب وعلى نفقـته. ليس هناك أفضل من ذلك بالنسبة للجريدة!

ورحل باولو ريچيه.

وفى «ريو ديه چانيرو» طاف بكل الكـباريهات، وعاش فى عـربدة دائمة لكى ينسى مـارياديه لورديس. كـان وجهـها يتراءى لـه فى قاع الكأس التـى يشربهـا يتضاءل ويتضاءل...

وفى عصر أحد الأيام، قابل أحد معارفه القدامى، الدبلوماسى خوسيه آوجستو الذى كان يسير فى الشارع يطوح بعكازه.

ناداه باولو ريچيـه. كـان فى حاجـة إلى مـثل ذلك الرجل بالـتحـديد، غبى ومغرور، ليثرثر ويتسلى وينسى.

ربت الدبلوماسى على كتفه بحرارة.

ـ أنت هنا يادكتور ريچيه؟ فى نزهة؟

ـ لا. لقد أتيت لأجرى مقابلات مع زعـماء الثورة. الآن أنـت مطمئن، أليس كذلك يادكتور خوسيه آوجستو؟

ـ كيف ذلك؟

ـ مع انتصار الحركة الثورية ستحصل على وظيفتك كسفير.

رجاه خـوسيه آوجـستو ألا يحـدثه عن ذلك، لقد ذهبت مـخططاته سدى. لم يكن ذلك بسبب صديقه الوزير. أمـا هو، وفى ظل الضربات التى لحقت بالعاملين بالوزارات، فيـعتقد أنه سـعيد بأن يبـقى سكرتيراً للسفـارة. وأتى بإشارة تنم عن الغضب.

ـ لقد جاءت الثورة بالإحباط. ونحن الوطنيين الحقيقيين الذين أيدناها أُصبنا بالإحباط. لابد من ثورة أخرى لكن عليها هذه المرة أن تقطع رأس كثير من الناس...

وبحركة مسرحية همس فى أذن باولو ريجيه بالكلمات الأخيرة. إن الظروف الحالية لن تدوم طويلاً. إن الجيش يثور لأقل...

لاحظ باولو ريجيه أن الشعب لم يكن راضياً. ولكن ألم يطالب الشعب بالثورة؟ وهو نفسه قد حضر اجتماعات كان الخطباء فيها يدعون إلى الثورة «التى تنتزع البرازيل من حافة الهاوية»...

ـ لقد أغرقتها الثورة فى الهاوية ياصديقى، لقد أغرقتها.

كيف يحدث الآن وبعد بضعة شهور أن يحتج الشعب على الظروف؟ هل يريد أن تقوم الحكومة بإصلاح البلاد فى شهرين؟

ـ ليس ذلك. إنك لا تعرف فضائل الشعب البرازيلى. إن شعبنا لايمتدح إلا من كان فى المعارضة. ولم يحدث أبداً أن ساند حكومة مهما كانت جيدة.

ـ فضيلة أليس كذلك؟ شعب كرنفالى...

ـ أتعرف يادكتور ريجيه من سيذهب اليوم إلى المنفى؟

ـ لا.

ـ إنه النائب الباهيانى السابق الذى عرفتك به. الدكتور أنطونيو راموس.

ـ آه. نعم! هذا الحمار...

ـ نعم إنه... ولكن لديه زوجة، الحيوان!

ـ ستذهب هى أيضاً إلى أوربا بطبيعة الحال...

ـ لا، إنها سوف تبقى.

ـ ولكنى أعتقد أنها تعشق باريس، فلماذا لا تنتهز الفرصة؟

ـ لأنه فى ريو ديه چانيرو، الحياة بدون زوج جنة... أفضل من باريس. وصل أتوبيس خوسيه آوجستو. اتفقا أن يتقابلا فى المساء. وصعد الدبلوماسى إلى الأتوبيس وهو يحيى هذا أو ذاك بسخاء من اتخذ النفاق مهنة له.

وفى الفندق وجد باولو ريچيه رسالتين بانتظاره. كانت إحداهما من أمه، رداً على برقيته التى يخبرها فيها برحلته، تطالبه فيها بأن يكتب لها رسائل. وكانت الرسالة الأخرى بتوقيع ريكاردو براس يطلب منه النصيحة، فالسياسى، ابن بلدته الذى أصبح الآن فى السلطة مع انتصار الثورة، يعرض عليه وظيفة وكيل نيابة فى إحدى مدن الداخل فى «بياوى». الأمر طبيعى، ولكن الحياة هناك لاتساوى شيئاً. سوف يعيش مع زوجته (نعم، لأنه لن يقبل هذه الوظيفة إلا لكى يتزوج) كما أنه يستطيع أن يشتهر كمحام (فكونه وكيل نيابة لايمنعه من الترافع فى القضايا المدنية) وأن يجنى المال. سوف يجد السعادة أخيراً مع روث. ما رأى ريچيه؟ إن خوسيه لوييز وتيسيانو وحدهما لايريدانه أن يتزوج. «فسوف يكون تعساً... سوف يكون تعساً». ثم يقول فى حاشية فى نهاية الرسالة: «عد ياباولو فالأمور هنا تسير من سيئ إلى أسوأ. لم يكن مفر من القطيعة بين تيسيانو وجوميز. وامتنع خوسيه لوييز عن التدخل أنت وحدك الذى...»

وكتب بالوريچيه رداً على الرسالة:

....

.... وإذا كنت تعتقد أن ذلك سيجلب السعادة إلى حياتك، فلا تتردد وتزوج. لا أنصحك بالزواج كوسيلة لحل مشكلة حياتك. لم أحاول أنا ذلك. ومع ذلك أشعر بأننى لو كنت فعلت لكنت تعساً. تعس

بنفس قدر تعاستى الآن. فمع شخصيتى... وغيرتى... كانت الحياة ستصبح جحيماً لى ولها. ولكن إذا كنت متأكداً من أنك ستجد فى الحب وفى الزواج هدف حياتك فلا تستمع إلى نصائح ولا تصغى لأحد. تزوج وعش حياتك. وإذا أصبحت تعساً؟ رصاصة تحل كل شىء. تحل كل مشاكل الحياة.

إن خوسيه لوبيز عندما تعرض عليه هذه الرسالة سوف يقول إننى اقترح عليك علاجاً لم أرده أنا. وسوف يبتسم تيسيانو مؤكداً أننى بمثل غباء فارجاس[1]. لكننى لم أنتحر (بأى أسىً أعترف لك ياريكاردو!) لأننى لم أكن أملك الشجاعة. ففى كل مرة كنت أضغط فوهة المسدس على أذنى كانت يدى ترتعش. لم تكن لدى الشجاعة، كنت جباناً. ولذلك لا أزال أحيا ولا أزال أعانى.

ولكنك إذا نسيت أنك، قبل كل شىء، فنان وشاعر وأنت تمارس المحاماة يمكنك أن تكون سعيداً.

حل مشكلتك بنفسك ياريكاردو، ولا تصغ إلا لرغبتك فى السعادة. سآتى فى خلال يومين لأهدئ من غضب جوميز باللقاءات المثيرة التى أجريتها.

* * *

أعاد قراءة الرسالة. لاحظ أنه كتب «هى» بحرفين كبيرين. فشطبها وكتب مكانها «هى» بحرفين صغيرين. «إنها لا تستحق إلا حرفين صغيرين». كان وهو ينظر من النافذة إلى البحر المتماوج يفكر فى حالة ريكاردو براس.

ـ المسكين! قد يتحول إلى تعس. قد يتحول إلى سعيد. فليحاول إنها مسألة

(١) جيتوليو فارجاس (١٨٨٣ ـ ١٩٥٤) أحد رؤساء البرازيل انتخب فى ١٩٣٤ مارس حكماً استبدادياً ولكنه حقق بعض الإصلاحات الاجتماعية. انتحر فى ١٩٥٤. (المترجم)

هامة أن يحاول المرء أن يكون سعيداً. أنا لم أفعل حتى ذلك. لقد كنت مغفلاً... ومع العشاء جاءت صحف المساء.

أخذ باولو ريچيه يتفلسف:

ـ إن المعدة وحدها التى لا علاقة لها بمآسينا. إنها مستمرة فى طلب الطعام بنفس الطريقة.

كان يفكر بأن الوعى والمعدة يعملان بنفس الكيفية، وبرهن لنفسه على:

ـ أن الرجل الغنى اللص يرقد ومعدته مرتاحة، ويستغرق فى النوم كأنه أطهر عباد الله. ولكن المسكين الذى يرقد ومعدته خاوية هو البائس الذى لا يستطيع النوم لأنه نادم على أنه لم يسرق...

وانقض على طعام العشاء.

قرأ الصحف. كان الشعب ساخطا لأن الحكومة لاتريد أن تمنح الإعانات المالية المقررة للأندية الكرنفالية.

وابتسم باولو:

ـ بلاد الكرنفال! بلاد الكرنفال! لو كنت رئيساً أو ديكتاتوراً كنت أقرر إقامة كرنفال لمدة ٣٦٥ يوماً... كانوا يعبدوننى...

كانت الأضواء فى المدينة تنافس النجوم. وكان مصباح كهربى كبير ينافس القمر. وكانت الإعلانات المضاءة تقترح علاجاً للمرضى الأغنياء.

كانت السيارات تمر وبها أناس أغنياء ذاهبون إلى المسرح.

ـ الرحمة بحق الله!

كانت المرأة النحيفة ـ وكأنها جلد على عظم ـ المسلولة تتجول وهى ترضع طفلاً يتراقص الجوع على وجنتيه.

أعطاها باولو ريچيه ورقة نقدية فى لهفة كبيرة لأن يبدو طيباً.

كانت السيارات الفارهة تتوالى.

ـ فليسعدك الله.. ليجعلك فى سعادة...

ـ مستحيل يا أختاه! لقد ولد الشقاء معى، الموت وحده الذى يخلصنى...

ـ أى إنسان لم يجرب الجوع لا يعرف الشقاء ياسيدى الطيب.

كان إعلان عن أحد الأدوية يستخدم عبارة السيد المسيح: «لا يحيا الإنسان بالخبز وحده. خذ «فورسول»! ردد باولو ريچيه:

ـ لا يحيا الإنسان بالخبز وحده... ولكن أين يعثر على السعادة ليأخذ منها؟

١١

حدثت القطيعة التى لا مفر منها وتخاصم جوميز مع بيدرو تيسيانو. وتضامن الآخرون مع تيسيانو وإن كانوا يعلمون أن المدير التجارى لجريدة «لاستادو داباهيا» على حق.

عندما وصل باولو ريجيه من ريو حكى له خوسيه لوبيز الموضوع:

ـ تصور أننا كنا نتحدث عن الكرنفال. وأكد ريكاردو أنه من المستحيل اليوم كتابة قصة عن الكرنفال بها بعض الأصالة. فما يكتب هو دائماً نفس القصة. أب يعطى كامل الحرية لإبنته، وفى الكرنفال يقابل فتاة متنكرة بشكل جذاب فيصطحبها إلى غرفة وعندما يعريها يكتشف أنها ابنته. من الممكن طبعاً أن يتم استبدال الفتاة بالزوجة أو الأخت أو الجدة.... ولكنها دائماً نفس القصة...

ـ نعم.

كنت مؤيداً لرأى ريكاردو. وبذل تيسيانو جهده فى أن يكتب قصة أصيلة عن الكرنفال فتحديناه، وفى اليوم التالى...

ـ ماذا حدث؟

ـ نشرت «لاستادو دا باهيا» القصة التى أحدثت القطيعة.

ـ أصيلة؟

ـ فى غاية الأصالة. وأكثر من ذلك أنها لا أخلاقية. أتعرف القصة التى تخيلها تيسيانو؟ أرمل لديه ثلاثة أبناء. الأول، أكبرهم طالب بإحدى الأكاديميات يتردد على ملاعب كرة القدم. والثانى لم يكن ولداً بل بنتاً. والأصغر صبى فى الرابعة عشرة، أدخله أبوه مدرسة داخلية. الفتاة التى تربت على الطريقة الأمريكية كانت تسىء استعمال الحرية الممنوحة لها. ويأتى الكرنفال ويصف تيسيانو ببراعة «مهرجان الغرائز». يرتدى العجوز قناعاً ويذهب للهو. كانت كل الأسرة خارج البيت. وكان من المفترض أن الابن الأصغر نائم فى المدرسة الداخلية. وفى إحدى الحفلات يقابل الأرمل قواماً جميلاً متنكراً... فيرقصان ويشربان ويثرثران. وعند منتصف الليل يبحثان عن مكان آمن. وينزع العجوز القناع فجأة عن صاحبه فيكتشف مرعوباً...

ـ ... ابنته؟ مثل الآخرين!

ـ لا ياعزيزى. ابنه! ذلك الذى كان بالمدرسة الداخلية. لقد هرب من المدرسة، واستأجر ملابس تنكرية وذهب ليرقص...

ـ أوه، أوه!

ـ خرج جوميز عن وعيه عندما قرأ القصة التى نشرت. «قصة شذوذ جنسى تحط من شأن الجريدة». ودارت بينهما مناقشات أنهاها تيسيانو بعنف وقرر أن ينسحب. وحاولنا أن نصلح ذات البين ولكن جوميز أساء فهمنا فانسحبنا نحن أيضاً تضامناً مع تيسيانو.

ـ ياله من كلب جوميز هذا! إنه فى نهاية الأمر مدين لك بكل ماوصل إليه

ياخوسيه، فعندما لم يكن لديه سوى «باهيا نوفا» كنت تمده بأسباب الحياة. والآن...

ـ وتيسيانو الذى جعل من «لاستادو دا باهيا» اسماً!

ـ كلب!

ـ نذل!

وأردف جيرونيمو:

ـ لقد كنت دوماً أقول إنه لا يساوى شيئاً.

ـ والمقابلات التى أجريتُها فى ريو، ماذا أفعل بها؟ أنشرها فى جريدة أخرى؟

وأشار عليه خوسيه لوبيز بأن يبعث بالمقابلات إلى جوميز.

ـ هكذا إذن! أذهب أنا إلى ريو على نفقتى، وأقوم بعد ذلك بإجراء المقابلات. فبأى مناسبة تكون لجوميز؟

ـ لقد ذهبت إلى هناك لكى تجريها له. ارسلها له.

ـ حسناً، سوف أرسلها. ستظل دوماً ياخوسيه لوبيز نفس الإنسان الطيب.

وأضاف جيرونيمو:

ـ الآن يدير «لاستادو دا باهيا» صحفى أخلاقى جاء من الأقاليم.

ـ والمحررون؟

ـ أناس من هنا. إن الجريدة يتم تحريرها بشكل سيىء للغاية...

ـ سوف تحقق الجريدة نجاحاً. فبالنسبة لباهيا، جريدة فقط مثل هذه...

ـ لقد رأيت جوميز ذلك اليوم، يزداد سمنة باستمرار، لقد أثرى النذل...

ـ ذكي...

ـ ولكنه أمي حتى الآن.

ـ سوف ينتهي حاكماً للولاية.

ـ إذا انتهى.

وفي الشارع، كانت زنجية تهز أردافها وتصيح:

ـ فول سوداني محمص! آكاراچيه وآباراس(١)!

وعلى مبعدة منها كان صبي يصرخ:

ـ «لاستادو دا باهيا»... اقرأ «لاستادو دا باهيا». مقالة عن غلاء المعيشة...

* * *

كانت صورة ماريادية لورديس تتلاشى شيئاً فشيئاً من ذهن باولو ريچيه.

وكان يشعر أنه حتى لو استطاع أن ينساها فإن حياته لن تستقيم أبداً. لن يكون لوجوده هدف، لماذا يحيا في نهاية الأمر؟ كان يشعر أن حياته راكدة مثل مياه بحيرة ليس لها ـ كما للأنهار ـ غاية: أن تنساب حتى تبلغ المحيط. ولكن على عكس مياه البحيرة. وإن كانت راكدة، فإن حياته لم تكن صافية. وسيطر عليه عدم رضا هائل. كان يشعر بالحاجة إلى السعادة أو الصفاء على الأقل. أن يحيا بلا رغبات ولا أحلام مثل بيدرو تيسيانو. إن لم يجد معنى أو هدفاً للوجود فعلى الأقل يجد الصفاء. أو يصبح لا مبالياً بلا رغبات. حتى ذلك كان مستحيلاً. لم

---

(١) آباراس: طبخة شعبية تصنع من عجين الفاصوليا وتقلى في زيت النخيل. (المترجم).

يفارقه عذاب البحث عن السعادة. لم يتوصل، مثل تيسيانو، إلى تقديس الشك. عاش أوقاتاً عصيبة. كان فى البيت الريفى الهادىء، متعزلاً فى غرفته، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، تسيطر عليه رغبة جبارة فى أن يقطع صلته بكل شىء، وكان ينتهى فى كل مرة تقريباً بأن يستقل سيارته ويذهب إلى بيدرو تيسيانو ليتحادثا. لم يعد تيسيانو يخرج. يكاد يكون أعمى. وكان يستطيع بالكاد أن يتحرك داخل البيت. كانت ابنته الصغرى تقوم برعايته. وهى فتاة فى الثالثة عشرة، كانت تجد ملاذها فى التقرب من ريچيه. وكان الرجلان يتحدثان كثيراً. وكان بيدرو تيسيانو الساخر يضحك من عدم رضا باولو ريچيه ويقول له:

ـ لماذا لا تلجأ إلى الدين ياولدى؟

ـ ومن يدرى! ربما أفعل ذلك...

ـ هيا، ياريچيه كفى. حاول أن تعيش من أجل الشك. أن تعيش من أجل المعاناة. من أجل عدم الرضا الخالص. وبدلاً من أن تصارع الشك، حاول أن تعشقه. أنا شخصياً أشك فى كل شىء.

ـ حتى فى الشك؟

ـ على الأخص الشك...

ـ أعرف ياتيسيانو أنك وجدت حلاً. لماذا تحتفظ به بأنانية؟ لماذا لا تخبرنا به؟

ـ لقد قلته أكثر من مرة! إن الحل هو ألا تريد أن تجد حلاً...

ـ هذه نكتة...

ـ كما تحب...

* * *

كانوا يتقابـلون قليلاً فى الآونة الأخيرة. كان باولو ريچيـه منطوياً على نفسه، لايقابل إلا تيسيانو. أما خوسيه لوييـز الذى كان يشرب كثيراً فقد غاص فى كتب الفلسفة، كـان عاطلاً عن العمل وكان يغـير الفندق باستمـرار. وفى كل مرة كان يغادر الفندق إلى فندق أسوأ منه. أصبح نحيلاً، غير راض، كارهاً للـحياة. كان يقرأ أكثر فأكثر عله يجد السعادة فى كتابات «كانط» والقديس «توماس».

ـ الفلسفة وحدها...

ولكن ريكاردو براس لم يوافق:

ـ بل الحب والزواج...

تزوج ريكاردو براس. وكان باولو ريچيه وخوسيه لوبيز شاهدين على الزواج. وعرض علـيه باولو أن يقـضى شهر العسل فى المزرعـة. بعد ذلك كان عـليه أن يذهب إلى مدينة صغيرة بعيدة داخل «بياوى».

تمتم تيسيانو:

ـ المسكين!

تحرر چيـرونيمو سواريس من تأثيـر بيدرو تيسيـانو. وبدأ يعيش سعـيداً. كان يقضى لياليه مع الفتاة التى قابلها مع بيدرو تيسيانو فى ذلك اليوم المشهود. قرر أن يعيش مـعها فى أكمل سـعادة... كان نادراً ما يـظهر. ولكنه فى الأيام التى يزور فيها تيسيانو كان يتخلى عن أحلامه كلهـا لسماعه سخريات صديقه. كان يتخيل نفسه مثل بيدرو، لا مبالياً، متعالياً، شريراً، محطماً للأوهام.

ولكنه فى الليل، بالقرب منها، وبيـن ذراعيها، كان ينسى تيسيـانو. وتعود إليه صورة بيت صغير مع كثير من الحب وكثير من الحنو. وكانت ابتسامتها هى أقصى

درجات السعادة. فكان يصارع تأثير بيدرو تيسيانو. كان يشك في قدرته على التغلب عليه. وإذا لم يستطع سيبقى بائساً طوال حياته... ولن يحقق أبداً أحلامه، ولن تكون له الشجاعة أبداً في أن يكون سعيداً...

وكان بيدرو تيسيانو يرى كل ذلك مثاراً للسخرية...

* * *

كان باولو ريجيه يتجول عندما صادف دونا هيلينا التي كانت تتبختر في ثوب جديد فحيته:

ـ أوه، دكتور باولو! كيف حالك؟

ـ لا بأس... وأنت يادونا هيلينا؟

ـ بخير...

سألته في فضول:

ـ وماريا ديه لورديس، يادكتور باولو ألم ترها؟

ـ لا يادونا هيلينا. لا أعرف أخبارها...

كانت دونا هيلينا تعرف، لقد بكت ماريا ديه لورديس كثيراً بعد القطيعة. رحلت من المسكن. بعد ذلك قيل لها إن الإشبينة حصلت على وظيفة مدرسة في منطقة الداخل. ورحلت...

حياها ريجيه بفتور شديد:

ـ وداعاً دونا هيلينا، وداعاً!

ـ أوه دكتور باولو! بحق الله... إنك مستعجل جداً! لنتحدث قليلاً...

إننى أسكن الآن فى منزلى الخاص. ألا تريد أن تزورنى هناك؟

وذهب باولو ريجيه. شعر برغبة مفاجئة فى أن يمتلك هذه المرأة. كان يجمعها شىء مشترك مع ماريا ديه لورديس. ربما كانت تتملكه الرغبة فى امتلاك خطيبته السابقة وهو يضم جارتها بين ذراعيه. كان يشعر بالفعل بهذه الرغبة الغريبة.

كان يخيل له أنه يحتضن ماريا ديه لورديس وهو يحتضن هيلينا.

* * *

أصبح من الصعب أن يقابل أى من أصدقائه. ريكاردو الذى تزوج كان فى المزرعة التى أعارها له، يقضى شهر العسل. وأحس باولو ريجيه أن ريكاردو سوف يبتعد عنهم تماماً. كان يخوض تجربة السعادة. وفى «بياوى»، المدينة الصغيرة بالإقليم يعيش تجربته وهناءه البرجوازى. إنه لايريد طبعاً أن يتذكر أصدقاءه الذين ينكرون سعادة الزواج.

وفى عصر أحد الأيام المشمسة، غمره فرح هائل عندما قابل خوسيه لوبيز يقرأ كتاباً لفرويد وهو يحتسى كأساً من «الفيرموت».

ـ خوسيه!

ـ مرحباً ياباولو! إجلس .

ـ دائماً تقرأ ياخوسيه؟

ـ فعلاً...

ـ قررت أن تجد السعادة فى الفلسفة؟

ـ وماهى السعادة إذن ياريجيه؟ أهى فرح كل يوم أم ألم كل ساعة؟ إنك تعرف جيداً أن هذه السعادة لا ترضينا.

ـ ربما تكون صفاء بيدرو تيسيانو ولا مبالاته.

ـ لا أعتقد ذلك، فيدرو ليس سعيداً. إنى متأكد من أنه يعانى من مأساة كبيرة. ولكن لاعتزازه بنفسه لا يبوح حتى لأصدقائه.

ـ يدهشنى ذلك. فبيدرو يرتفع فوق كل شىء. فوق حياته الخاصة. إنه متعال. لايشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية.

ـ إن الإنسان الذى لا يشعر بالبهجة أو الأحزان اليومية إنسان مطمئن. ولكن هذا الإنسان المثالى لا وجود له. إن تيسيانو يشعر بها... وخاصة الأحزان...

ـ والسعادة ماهى؟

ـ ربما إيجاد حل فى الحياة...

ـ كيف؟

ـ نظام فلسفى، دين...

ـ ممكن. لم يبق لى إلا أن أحاول فى الدين.

ـ وفى ذلك أيضاً سوف تفشل...

ـ لماذا؟

ـ لأن الدين لا يكون مُرضياً إلا عندما تصل إليه بالفلسفة ...

ـ وإذا لم نفعل؟...

ـ ... قد نشعر بجمال الدين، بشاعريته، ولكننا نمل منه كما نمل من امرأة...

إننا لا نعرف الأسس والأسباب...

ـ ومع ذلك فإن الشعب، الناس الجـهلاء الذين لا يعرفون حتى مـاهى الفلسفة يشعرون بالراحة فى الدين.

ـ الجهلاء نعم، ولكنك إنسان سام.

ـ أى شقاء أن يمتلك المرء قدراً من الذكـاء! إنى على استعداد لأن أتنازل عن كل ثروتى مقابل جهل أحد هؤلاء البائسين.

ـ أمنية قديمة لكل إنسان ذكى، ياصديقى.

وطلب كأساً أخرى من «الفيرموت»، وتابع خوسيه لوبيز:

ـ لقد أنهيت رواية عن هذا الموضوع ياباولو...

ـ حقا؟ ومتى ستنشر؟

ـ لا أستطيع أن أنشرها، بأى نقود؟

ـ أنا أمول النشر... سوف ننشغل بذلك على الفور.

دفع باولو ريجيه حساب المشروبات. كان خوسيه لوبيز فى ملابسه الرثة صورة لحياتهم أجمعين.

ـ خوسيه، لماذا لا تأتى لتعيش معى فى البيت؟ سأعد لك غرفة...

ـ لا ياريجيه، لا تكلف نفسك هذا العناء...

ـ سأعطى أمراً، وتأتى غداً لتستقر.

ـ لا ياسيدى. لا أعرف كـيف أعيش عند الآخرين. هذه مسألة مـحسومة. لن أذهب.

ـ أنت...

* * *

في مسكنه بالفندق الحقير، كان خوسيه لوبيز يرتب مسودة الرواية التي لم يكن قد وضع لها عنواناً بعد. كان يجهد ذهنه في أن يجد لها عنواناً. كتب: «مرضى عدم الرضا». قرأه. لم يعجبه. شطبه وكتب: «شحاذون السعادة».

وفي الصفحة الأخيرة، بدلاً من كلمة «النهاية» التقليدية كتب: «انتهى». ابتسم خوسيه لوبيز. وشطب بالقلم كلمة «انتهى» واستبدلها بكلمة «ابتدأ» كان يتساءل عما إذا كان أحد سيفهم أنه بمجرد انتهاء الكتاب ونهاية البحث الوهمي عن معنى الحياة، تبدأ مأساة كل يوم...

كان خوسيه لوبيز يفكر:

ـ ومع ذلك لن تكون الرواية مفهومة. من سيقرأها لن يفهم شيئاً. إنها قصة بضع أرواح. إنني لا أصف حتى الحالة الفيزيقية لشخصياتي.... إنهم مجرد مشاعر...

وأعاد هذه الأفكار على باولو ريچيه عندما ذهبا إلى المطبعة.

ـ إن روايتي ينقصها المعنى الإنساني. إنها ذاتية تماماً.. إنها حياتنا.. لن يهتم بها أحد...

ـ وذلك يعني أنها رواية جيدة.

عندما غادرا المطبعة كان الوقت مساءاً. كانت الظهيرة قد ماتت بلا ضجة. مكررة ما فعلته بالأمس، وما ستفعله في الغد.

وفي الكنيسة، كان الناس يصلون، وكان الدعاء يتصاعد كأنه تضرع واسترحام.

ـ أنا لست بعد «شحاذاً للسعادة» ياخوسيه... وإلا كنت هناك مع المصلين...

ـ إن الدين مثار سخرية. ومع ذلك أشعر بحاجة كبيرة للإيمان...

ـ ولماذا لا تؤمن؟

ـ لا أؤمن. ربما أصل إلى الدين. وإذا وصلت سيكون أمراً حسناً جداً...

ـ ستصبح «توماثيا»...

ـ نعم، سأجد أساس الدين.

ـ إنى أعتقد، مثل ريكاردو، أن الأشياء الطبيعية وحدها هي التى تحقق الرضا. الغريزة وحدها يمكنها أن تقودنا إلى الدين. إن الدين لايمكن تفسيره بل يجب أن يُحس. إن الغريزة (هذه الغريزة لا علاقة لها بالمادية، كما ترى...) هي التى يمكن أن تقود إلى الدين...

ـ إلى أى دين؟ إلى دين فرويد؟

ـ كلا. إلى دين المسيح لكن بلا خداع...

ـ ها أنت ثانية تسخر... لقد مضى ذلك الزمن...

ـ لا، بل إنى جاد...

* * *

لم تلاق رواية خوسيه لوييز أى نجاح. قرأها عدد قليل. ولم يتحدث عنها النقاد. وظلت النسخ بالمكتبات. لم يفهم أحد صرخة اليأس التى كانت فى هذا الكتاب. رأى الكاثوليك أن الكتاب يهاجم الدين. وقال الماديون إن أبطال الرواية يسيرون نحو الكاثوليكية، بينما أشاع أعداء خوسيه لوييز أن الكتاب شيوعى.

ظلت البرازيل كما هى. لا أحسن ولا أسوأ. برازيل سعيدة لا تنشغل بمشاكل، لا تفكر وتحلم فقط بأن تكون، فى المستقبل القريب «البلد الأول فى العالم»...

* * *

عاد ريكاردو براس من المزرعة مع زوجته روث التى أصبحت أكثر إثارة وأنوثة وهى تستند إلى كتف زوجها باسترخاء.

نظر باولو ريجيه إلى ريكاردو فى عينيه، محاولاً أن يكتشف ميكروب الشبع. تمتم خوسيه لوبيز الذى فهم مقصده:

ـ لا يزال الوقت مبكراً.

قاما بزيارة تيسيانو الذى بدا متأثراً. كان يبدو له أنها آخر مرة يرى فيها ريكاردو.

ـ ستذهب إلى «بياوى». وعندما تعود لن تجدنى... لن أكون هنا..

ـ لا تقل ذلك ياتيسيانو.

ـ إنها الحقيقة. أشعر أنى ضعيف. لكن لحسن الحظ لا أزال أراكم...

وتطرقت المحادثة لكتاب خوسيه لوبيز الذى استحسنه ريكاردو براس:

ـ رائع!

ـ لأنى أحمل فى داخلى مأساة كل منكم. فشل ريجيه فى الغريزة والعاطفة. ومأساة تيسيانو فى الشك. والفشل الذى سوف تقابله حتماً ياريكاردو فى الحياة البرجوازية التى ستحياها...

ـ سوف نرى...

وسأله تيسيانو:

ـ أتعتقد أني فشلت؟

ـ إن وضعك لنفسك فوق الحياة هو فشل. إنك لم تنتصر في الحياة

لقد ظللت متفرجاً... لقد فشلت...

ـ ربما... ربما...

ـ هذه هي مأساتي. لأنني أعرف أن شيئاً لن يرضيني وأخاف أن أصبح مثلك أنت ياتيسيانو. ومن المستحيل أن أبقى لا مبالياً بالحياة. لابد أن أعاني دوماً...

جاءت ابنة تيسـيانو الصغيرة بالقـهوة، وأخذوا يتجرعـون السائل الأسود ببطء في رشفات صغيرة.

١٢

بعد قليل غـادرهم خوسيـه لويز. اصطحبه چيرونيمـو سواريس وبقى باولو ريچيـه الذى أراد أن يمضى بعض الوقت مع ريكاردو بـراس الذ - سوف يرحل فى مغامرة السعادة الى مدينة صغيرة كئيبة.

استفسر باولو قلقاً حزيناً من رحيل صديقه عنهم:

ـ لماذا فضلت أن تسلك من داخل ولاية باهيا؟ ألم يكـن من الأفضل أن تسافر بالباخرة؟

ـ لا، فالرحلـة بالقطار أكثر فـائدة. سوف أذهب حـتى «چوازيرو» ومن هناك أذهب إلى «بياوى» وأمكث هنالك...

ـ سوف تترك فراغاً...

أخذ باولو ريچيه يتـأمل القطار الساكن. كـان الرذاذ يتسـاقط، وكانت روث تتدثر بمعطف يكاد يبتلعها.

قالت بتغنج:

ـ إن لى حـقوقـاً على ريكاردو أكـثر مما لكم عليـه. إننى زوجـته... أمـا أنتم فمجرد أصدقائه.

كان القطار الساكن يعطى إحساساً بالقلق لايمكن تفسيره.

تابعت روث وهى تطوق عنق زوجها بذراعيها:

ـ ومع ذلك، سوف أقوم... أقوم بشفائه من الأدب...

ـ هل قلت أدبا يادونا روث. أن حياتنا أدب فحسب.

وتابع كمن يحدث نفسه:

ـ ومن ذا الذى يستطيع أن يبرأ منه؟

صفّر القطار. وكان فى هذا الصفير الحاد الممتد شىء من الحنين يثير القلق.

ـ وداعاً يادكتور ريچيه.

ـ وداعاً يادونا روث.

ـ باولو...

ـ ريكاردو...

تعانقا طويلا وظل القطار الكبير ساكناً لا مبالٍ.

ـ قل وداعاً لخوسيه وتيسيانو.

وتابع بصوت خفيض:

ـ سأكون سعيداً ياريچيه.

ـ أتمنى لك السعادة...

ثم بدأ القطار يتحرك وريكاردو فى النافذة يلوح بإشارة الوداع، وظل باولو ريچيه ساكناً ينظر إليه. ونقص الأصدقاء واحداً...

ظل وحيداً على رصيف المحطة.

ـ مسكين ريكاردو! كم سيصبح تعساً عندما يحل الشيع.

وإذا كان على صواب في نهاية الأمر؟ إذا كانت السعادة تكمن في الزواج؟

إذا صح ذلك يكون ريچيه قد ترك السعادة تفلت منه. لقد كانت في متناوله... ولم يكن عليه إلا التغلب على الأعراف. ولكنه فشل حتى في ذلك. هو الذى كان فى باريس يطلق السخريات ويهزأ بالمجتمع لم تواته الشجاعة ليتملص منه. ربما ترك السعادة تفلت... أن تكون له زوجة، وكثيراً من الحنان، وطفلا صغيراً يلعب معه. أن يربى الدجاج ويكون غيوراً. السعادة...

من يدرى...

اتجه باولو ريچيه نحو السيارة وهو يبتسم.

والبهجة؟ من يعرف ؟ ربما تكمن فى الحزن...

وفى السيارة أخذ يتابع أفكاره وهو شبه مستلق.

بعد ذلك أراد أن ينتحر. لقد قرب المسدس من أذنه فى عصر أحد الأيام الغائمة. عصر خلق من أجل الانتحار. ولكنه فقد شجاعته. كان يخاف من الموت بشكل لا يصدق... لماذا؟ لم يكن قد فهم بعد... لم تكن الغيبيات تخيفه. لم يكن يعتقد إلا فى حياة الجسد... لماذا لم ينتحر؟...

كانت السيارة تتابع طريقها فوق الطريق المبلول. وكان بعض الصبية يلعبون كرة القدم، على الرغم من المطر. كانت به رغبة أن يطلب من السائق أن يدوس هؤلاء الصبية. أن يقتلهم جميعا. كان يفكر فى ذلك وهو يشعر بالرأفة الانسانية. «إن ذلك سوف يجنبهم المعاناة. ولكن ما من أحد يريد أن يفارق الحياة...» فكل

الناس يتشبثون بها بشراسة. حتى أولئك المسحوقون مثله. لم يكن لهم أى أمل (أملنا اليومى!) فى بلوغ فتات السعادة هذه...

كان متعلقاً بالحياة. لم يرد أن يفارقها. اهتز المسدس فى يده فى عصر ذلك اليوم الضبابى، عصر يوم المنتحرين...

وفكر فى القطار الكبير الذى ذهب فيه صديقه ريكاردو، بعيداً...

ـ إننا فرسان السعادة. لقد حاولنا جميعاً خوض المغامرة. وفشلت أنا.

وكان خوسيه لوبيز خاسراً دوماً. أما ريكاردو فبدلاً من أن يواصل مشاطرتنا مأساتنا، رأى أن يحاول العثور على معنى للحياة...

القلق... الحاجة الى هدف. لماذا؟ لماذا هذا الشك؟ ولماذا عدم الرضا ذاك؟

ـ الأدب...

كان صوت روث يرن فى أذنيه عذباً.

ـ سأكون سعيداً (الأمل فى صوت ريكاردو)

ـ أتمنى لك السعادة... (الوهم فى صوته).

ـ المسكين! وعندما يشبع؟ وعندما يشعر أن بهجة كل يوم وأحزان كل يوم لم تعد تكفيه؟ ستكون مأساة رهيبة. ماذا ستكون نهاية ريكاردو؟ إنه طيب جداً، مخلص جداً... نهاية حزينة...

كان صبى قذر، رث الملابس ينادى على الجرائد. وكانت الشمس تخترق السحب التى تملأ السماء وتتفضل بالظهور. فى ذلك الصباح، كانت السماء البرازيلية تحاول أن تقلد سماء لندن. ولكنها كانت كممثل فاشل فبدت رمادية.

نادى باولو ريجيه الصبى بائع الجرائد، واشترى منه جريدة. وبدأ يقرأ ليبعد الأفكار التى جعلته مكتئباً.

لقد اشترى بالمصادفة جريدة «لاستادو دا باهيا» كانت المقالة الأساسية تحلل الوضع السياسى. كانت تتحدث عن الوطن الحبيب، وعن إعادة إصلاح البلاد وإنمائها، وعن العزة. قرأ باولو ريجيه المقالة كلها ووجد فى نهايتها توقيعاً باسم ا. جوميز.

جوميز يكتب الآن.. من كان يتصور ذلك؟... ولكن الدنيا تدور... جوميز... إنه أيضاً لن يصل إلى السعادة أبداً. لقد صور له ذكاؤه أن المال سيعوضه عن عدم الرضا. لم يدرك أن المال شديد الوطأة أحياناً.. إنه هو باولو ريجيه الغنى جداً الذى يقول ذلك... فالمال لا فائدة له إلا فى إشباع الغرائز... والغريزة (التى لايستطيع ريجيه أن ينكرها) ليست كل شىء فى الحياة. كانت السيارة تجول فى المدينة. أمر باولو السائق بأن يتوقف أمام إحدى الحانات. لم يجد خوسيه لوبيز. فتابع طريقه. وخوسيه لوبيز؟ عندما تعرف به، أعتقد أنه قابل نموذجاً للإنسان المطمئن. وبعد ذلك، يا للفرق! إنسان ينوء بالمشاكل، تعس إلى أقصى درجة... يخفى تحت مظهره البرجوازى إنساناً ممزقاً، واحداً من أبطال تلك المآسى العبثية. والآن وقد أصبح لا يعتقد فى شىء، أخذ يقضى وقته فى الشرب... إن أصدقاءه هؤلاء نماذج بائسة. إن أصدقاءه الوحيدين أصدقاؤه البرازيليون. أما أصدقاؤه الفرنسيون فقد نسيهم بالفعل...

عامان فى البرازيل... والنتيجة، ماذا أفاد من عودته إلى الوطن؟ انهارت كل مشروعاته. لم ينخرط فى السياسة، ولم يمارس المحاماة. والشهور التى أمضاها فى الصحافة لم تحقق له اسماً. تخلى فقط عن شكه الذى جاء به من فرنسا، وأصبح قلقاً... وفوق ذلك، لم يجد نفسه وسط شعبه الذى كان يزداد سخطاً كل يوم. تلفت حوله فرأى فى المرآة لافتة تحمل إعلاناً بحروف حمراء كبيرة:

ـ آوجستو، هيا لنرى ذلك الشيء

واقترب السائق بالسيارة، وقرأ ريچيه:

اليوم ـ اجتماع كبير ـ اليوم في قاعة الاحتفالات يتحدث النقيب كارلوس فريياس عن الحكومة الحالية وينتقدها. خطب لبعض الشخصيات تطالب بعودة البلاد إلى النظام الدستورى.

دهش باولو ريچيه:

ـ ياله من شعب! بالأمس قام بثورة، وبعد بضعة شهور يريد أن يحارب هذه الثورة! ياله من كرنفال! وهذا النقيب! عندما عدت، كان يشيد بالسياسيين الليبراليين باسم قحاب باهيا. واليوم، يهاجم الثوار. إنه جنون إلقاء الخطب... بلاد الكرنفال...

وتابعت السيارة طريقها على الأسفلت المبلول.

* * *

كان جيرونيمو سواريس قابعاً في وسط السرير. أرادت «كونشيساو» بود أن تعرف ما به.

ـ لا شيء، ياصغيرتى، لا شيء.

اقتربت منه وقبلته في جبينه.

ـ أغاضب منى، ياحبيبى الجميل؟

ـ لا.. لكن اتركينى فى حالى.

ظلت تنظر إليه، والسؤال معلق فى عينيها وعلى شفتيها.

وظل جيرونيمو فى وسط السرير صامتاً. يحدث ذلك فى كل مرة يذهب فيها إلى تيسيانو. وكان بيدرو الذى يشعر أن جيرونيمو يبتعد عنه بمرور الوقت، يسخر من كل المثل فى هذا العالم والعالم الآخر.

ـ لأن الحب، فى الحقيقة، بلاهة، أليس كذلك ياجيرونيمو؟ أن نهوى من لا يستطيع أن يمنحنا شيئاً سوى الجنس... والجنس يباع فى الشارع بأبخس الأثمان. إن الحب بلاهة شعراء رومانسيين محرومين. بلاهة ليس فيها من الأصالة شىء. لا ينبغى أن نتعلق إلا بما يتسم بالأصالة، أن نحب إمرأة هندية والتى قبل أن تمنحك نفسها تتمدد فوق سكاكين حادة، أو نحيا مع غجرية تلف بنا العالم دون وطن ودون إله... إننى أعشق الغجر لأننى غجرى فى الثقافة. لكن أن تحب امرأة عادية، تشبه كل النساء الموجودات منذ الأزل، جميلة لا أكثر، تقوم بحساب الحب ولا تمارسه إلا بشهادة مقدسة من الكنيسة، امرأة بلا عيوب أو نقائص، فهذه تفاهة. الرجال العاديون فقط هم من يحبون نساء مثل أولئك...

أيده جيرونيمو وقد احمر خجلاً:

ـ نعم...

ـ وأن تؤمن... لا يزال هناك رجال أذكياء يؤمنون. أن تؤمن ... أن تؤمن بأن هناك إلها، مخلوق أسمى يقود خطانا ويحمينا...لا يزال هناك من يؤمنون...

ـ نعم هناك...

ـ اسمع ياجيرونيمو. يقولون إن الله خلق الإنسان. أما أنا فأعتقد أن الإنسان هو الذى خلق الله. على أى حال، سواء خلق الله الإنسان أم خلق الإنسان الله فالمسألة لا تليق بإنسان ذكى.

ـ والمسيح يابيدرو تيسانو؟

ـ إنه شاعر. ساخر. متشكك. رجل مختلف عن عصره. لقد بشر المسيح بالمحبة لأنهم فى ذلك العهد كانوا يقدسون القسوة. كان متذوقاً للجمال. لقد أحب الجمال أكثر من أى شىء آخر. لقد قام بسخريات رائعة فى ميدان عام على الملأ. مثال ذلك المرأة الزانية. لقد غفر لها لأن المرأة كانت جميلة وأن امرأة مثلها لها الحق فى أن تفعل كل شىء. لقد استطاع المسيح أن يقهر الأعراف. كان رجلاً غير عادى. لكنه إله تافه جداً..

ـ كيف؟

ـ إله لم يأت أبداً بمعجزات كبيرة! اكتفى بأن يضاعف الخبز، وأن يشفى العميان. لم يزحزح أبداً الجبال، ولم ينزل أبداً من السماء ناراً على الأرض، ولم يوقف الشمس. لقد كان المسيح دائماً رغماً عنه مشعوذاً سيئاً.

ـ ومسيح المحبة؟

ـ إن المسيح كإنسان كان دائماً متسقاً. كان يبشر بالعفو لأن الانتقام كان القانون السائد فى ذلك الوقت. وكان يبشر بالعفة لأن الفسق كان منتشراً فى ذلك العهد. لقد كان من الخارج، على الأقل، طاهراً على الرغم من عناد المجدلية وغيرها من النساء...

ـ ومن الداخل؟

ـ من يدرى! من المحتمل أن المسيح كان محافظاً على طهارته... على أى حال... إن الخطيئة بين أربعة جدران ليست خطيئة... هذا هو قانون العالم...

ـ والحب والإيمان بطريقة رومانسية بين أربعة جدران؟

ـ إن الغباء هو دائماً غباء أينما كان.

أطاعت وهى تحبس دموعها، أنزلت الصورة لتطلب منها الغفران. كان المصباح الكهربى المتلألأ ينشر الضوء فى أرجاء الغرفة.

ـ اطفئى هذا الضوء ياكونشيساو!

أطفأت الضوء.

ـ حتى بين أربعة جدران فالحب غباء... لامست ساق كونشيساو العارية ساقه. وأطبقت شفتاها المكتنزتان على شفتيه، وأخذ التفكير ينطفىء رويداً رويداً. ساق تلامس ساقاً. وشفتان تطبق على شفتين. أخذت غريزة الجسد تمحو العقل. كانت القبلة طويلة عذبة يمكن سماعها من خارج جدران الغرفة الأربعة...

١٣

استيقظت صورة «ماريا ديه لورديس» التى كانت راقدة فى عقله. من جراء الخبر الذى أعلمته به هيلينا. فأخذ يتأمل تصاريف القدر. إن هذا المعلم الشاب الذى أمضى حياته يبشر بالأخلاق ويعلّم احترام المجتمع كانت لديه الشجاعة لأن يحطم الأعراف. أما هو، باولو ريچيه، الساخر، المتناقض، الذى يسخر من كل شئ يمت للأعراف بصلة، فقد استسلم للمجتمع.

ـ ولكن امتأكدة أنت من أن لوردينيا سوف تتزوج؟

ـ بلى... سوف تتزوج من مدرس فى المدينة التى تعمل فيها دونا بومبينيا بالتدريس. إن له اسماً معقداً. إن لم أخطئ فغريمك يدعى سيبستيانو هيبوليتو.

ـ غريمى... غريمى...

أمسك رأسه بيديه. وكانت هيلينا تنتظره فى أحسن ثوب لديها.

ـ لقد حان موعد السينما. ياباولو!

ـ اذهبى أنت، سأنتظرك.

ـ هذا فقط إذا كانت چورچينا تريد الذهاب معى.

وافقت چورچينا التى ارتدت ثوبها على عجل، وخرجتا متأنقتين توزعان الابتسامات على الرجال المصطفين على الرصيف.

مرر باولو ريچيه أصابعه فى شعره بحركة تخصه وحده. كان لايريد أن يفكر. أبعد رأسه عن يديه ونهض. مشى إلى النافذة. حاول أن يتسلى بحركة الشارع. كانت عربة القمامة تجمع القاذورات. إن حياته (لم يرد أن يفكر ولكن الفكرة عاندته) كانت قذرة جداً. أى عامل نظافة ذلك الذى سينظفها؟ أيهم؟

مرت سيارة ارتسم فيها شبح هزيل. هزيل مثلها. وربما أسمر مثلها. جميلة للغاية. ماريا ديه لورديس... عيناها الواسعتان غائمتان. أى حزن ذلك الذى بهاتين العينين الواسعتين... إن هاتين العينين لم تكذبانه قط. كانتا تعترفان له دوماً بأن ماريا ديه لورديس تعيش فى ألم كبير... لو كانت هنا، فى هذه اللحظة، لزالت كل آلامه وأحزانه. ولكانت قد داعبته، ووضعت يديها الرقيقتين فى شعره المنكوش فيطمئن قلبه. طيبة للغاية «ماريا ديه لورديس»...

وهو باولو ريچيه الذى يعتقد أنه متحرر ومتحضر إلى أبعد مدى ترك السعادة تفلت لأنه لم تكن لديه الشجاعة على الوقوف فى وجه الأعراف. لقد كان ميراث الأعراف راسخاً فى دمه...

السعادة فى أن يتزوج، ويكون له أطفال صغار، ويعيش بطريقة برجوازية... ولكن هل كانت تحبه حقاً؟ وكيف ستتزوج من آخر؟ من الطبيعى أنها الآن تحتقر باولو ريچيه. لقد أظهر أنه جبان. تافه وضيع. أما الآخر، المدرس، فقد ظهر كبطل. «سيبستيانو هيبوليتو»... اسم شاعر.. لابد أنه شاب نحيف، ذو شعر طويل، يكتب أشعاراً غنائية، وفى أعماقه رب أسرة طيب.

ـ إن السعادة لا ينالها إلا التافهون والمغفلون.

ورنت فى أذنيه ضحكة بيدرو تيسيانو الشريرة الحادة.

ـ كل ذلك عبارة عن أدب... أدب... (حلاوة صوت روث)

ترك باولو ريچيه ذراعيه تسقطان بجانبه فى حركة تنم عن الإحباط.

ـ آه، الحياة.

أخذ يمشى بخطوات بطيئة فى الغرفة. أخذ قبعته واتجه نحو الباب.

ـ أتذهب الآن يا دكتور باولو؟

ـ أنت هنا يا «بيبيه»؟

ـ أنا هنا لأن هيلينا لا تصحبنى إلى أى مكان. ومع ذلك لقد أصبحت شابة. كانت تنفخ صدرها لتظهر ثدييها الصغيرين تحت الفستان. ابتسم باولو ريچيه باشتهاء.

ـ تعالى هنا يابيبيه.

أجلسها على ركبتيه، وأخذ يتحسس جسدها بيديه. لاتزال طفلة ولكنها خليعة للغاية. واتجه تفكيره نحو ماريا ديه لورديس. فهى وإن كانت لم تعد عذراء لاتزال طاهرة. ترك بيبيه فجأة كمن يحاول أن يهرب من شىء، وخرج مسرعاً إلى الشوارع ذات الأرصفة السيئة.

* * *

ـ نادى قمار؟

ـ نعم وماذا هناك؟ نادى قمار.

أسقط فى يد باولو ريچيه. وكان خوسيه لوبير يبتسم من هيئته المرتابة.

ـ أصبحت مديراً لنادى قمار لأن ذلك يعود بالربح الوفير. لا أفعل شيئاً سوى بيع «فيشات» القمار وشرب القهوة مع الزبائن.

ـ إنك مجنون ياخوسيه...

ـ لماذا ياباولو؟

ـ وثقافتك وطموحك، كل ذلك؟

ـ هل قلت إن لى طموحاً! إننى لا أطمح إلى شىء. وليست لى ميول أدبية. إننى اعتقد باستحالة الوصول إلى السعادة. وفوق كل ذلك، لابد أن أدفع أجرة البنسيون...

ـ إنك...

ـ إسمع يا باولو. لقد نكصتُ عن كل شىء. لقد اقتنعت تماماً بما يقوله بيدروتيسيانو فالرجال المميزون. الرجال المختلفون لاغاية لهم. يحيون من أجل الحياة... وهذا ما أفعله.

ـ وعدم الرضا؟ والشك؟

ـ موقف فكرى...

ـ إذن أنت تعتقد، مثل زوجة ريكاردو، أن كل ذلك أدب؟

ـ بالضبط،

ـ جميل!

ـ اسمع يا باولو، إن النهاية هى الموت كما يؤكد تيسيانو. وفى الموت وحده تكمن السعادة. لأن الموت وحده يخلصنا من آلام هذا العالم.

ـ ولم تنتحر...

ـ لا تدهش لذلك. فـأنا عـاطفى للغـاية. لماذا أسـبب لكـم هذا الألم وأنتم تحبوننى كثيراً، أنت. وتيسيانو وريكاردو وچيرونيمو؟

ـ معك حق. أنا الذى لم أنتحر لأننى لا أملك الشجاعة.

ـ من أجل ذلك فقط؟

ـ خصوصاً من أجل ذلك... صـحيح أننى فكرت فى أمى وفيكم... لكن ألمى كان كبيراً... لقد كنت جباناً...

ـ دعك يا باولو من هذه البلاهة...

ـ أتعرف أنها سوف تتزوج؟

ـ خطيبتك السابقة؟

ـ نعم. ماريا ديه لورديس.

ـ إن ذلك لا يدهشنى كـثيـراً. فهـذه هى الحيـاة فى نهاية الأمـر. لقد شـعرت بحاجتها إلى زوج ووجدته، ماذا هناك؟ ولم تكن أنت، بل كان شخصاً آخر.

ـ إننى بائس. لقد تركت السعادة تفلت منى...

ـ من يعـرف ما إذا كنت سـتصـبح أكثـر تعاسـة؟ إن الحب يا باولو لا يجلب السعادة... ولاشىء فى الحياة يفعل...

ـ ولاحتى الفلسفة، ياخوسيه؟

ـ حتى الفلسـفة كففت عن الاعـتقاد بها. لقـد كنت أعتقد أن الفلسـفة تمنحنا السكينة على الأقل، وأنها تحل مشاكلنا. كنت مخطئاً وزاد إحباطى إحباطاً.

ـ إن التجربة تكتمل بالإحباط...

ـ لقد خضت تجربة كبيرة...

ودعه خوسيه لوبيز. كان الوقت متأخراً، وكـان عليه أن يذهب إلى عمله فى نادى القمار. تابعـه باولو ريچيه بعينيه فى حـزن. كان نحيفاً، خـداه غائران، كان يسعل كثيراً خلال المحادثة... أصبحـوا لا يتلاقون إلا نادراً. وأصبح خوسيه لوبيز لايظهر. كان يخفى بؤسه عن الجميع... كان ريچيه يتذكره: كان أكثرهم اعترافاً، وأكثرهم أمـلاً. كان يأمل فى السعادة والصفاء. والآن، أصـبح محطماً، يسكر فى الحانات، ويدير نادياً للقمار، يتربص به داء السل. لقد كان رمزاً لفشلهم جميعاً... لأنهم فشلوا بشكل محزن...

* * *

فشلـواكلهم ما عـدا چيرونيـمو سواريـس. فهو وإن لم يـتوصل إلى السـعادة الكاملة فإنه يمـشى إليها بخطى عـملاقة. كان قـد تخلص رويداً رويداً من تأثير بيدرو تيسيانو، وقرر أن يـعيش بصفة نهائية مع كونشيساو. اسـتأجر منزلاً صغيراً وأثثه بذوق. انتـقــلا إلى المنزل الجـديد ذات يوم سـبت بعـــد الظهـر. وقـامت كونشـيساو وهى فرحـة، وبهجة طفوليـة تتراقص على وجههـا، بترتيب المسكن. كانت تأمل دائماً فـى أن تمتلك منزلاً. عندما كانت ما تزال فتـاة فى بيت والديها، كان الزواج يبـدو لها منتـهى الآمال. بعد ذلك، ضـاعت وأصبحـت عاهرة ذليلة. ولكنها لم تنس أبداً حلمها. بيت صغير... ورجل تمنحه نفسها كلية. تعطيه الحب ويعطيها السعادة.

كم من مرة كانت زميلاتها فى العمل، العاهـرات الوقحات المرضى بالزهرى يتهكمن على آمالها!

ـ عندما نسقط فى هذه الحـياة يا ابنتى، لا نخرج منها أبداً. وأقـصى ما نحصل

عليه قواد يحمينا... لكن ذلك هو الأسوأ. ولا سبيل لأن تمنحي جسدك لرجل آخر، لأن القواد سيلازمك كظلك. وإذا ركبت رأسك ستتلقين الضربات وتعودين إلى الشارع.

كانت تشك فى أن تتخذ صديقاً.

ـ إن جسد الواحدة منا اعتاد أن يكون للجميع. لايرضى بأن يكون لواحد... ولكن كونشيساو خلقت لتكون ربة أسرة. لقد خلقت لتمنح نفسها لواحد، واحد فحسب. ولذلك عندما دخل چيرونيمو العاطفى المتعطش للحب فى حياتها، أيقنت أن أحلامها قد تحققت. أحبته بعمق، وكان هو، بالمقابل، طيباً للغاية.

كانت زميلاتها يقلن:

ـ قديس!

ومع ذلك. كانت هناك أيام يتكدر فيها مزاجه. وكان يغلظ لها القول، ويجعلها تتألم. كانت تبكى كثيراً عندما يصبح شديد الوطأة. ولكن مثل هذه الأيام أصبحت نادرة مؤخراً، وكانت سعيدة بأنها فى سبيل السيطرة عليه بحبها. لم تكن تعرف أن إضمحلال تأثير تيسيانو عليه هو الذى حقق هذه المعجزة. والحقيقة، أن چيرونيمو كان لايرى تيسيانو إلا قليلاً. كان يخشى أن يقع من جديد فى القبضة الحديدية لسخريات هذا المدمر.

ـ إن الحب بلاهة...

ولكن چيرونيمو، المتعطش للحب. كان يفضل أن يكون أبله على أن يكون بائساً.

* * *

تقابلوا عند بيـدرو تيسيـانو. كانت حالة صـديقهم قد سـاءت فجأة. تجمـعوا بجانب فـراشه وكان باولو ريچيـه حزيناً للغاية، متـأثراً أشد التأثر. وقد اسـتولى عليه خوف مرعب من أن يموت تيسيانو. فتيسيانو كان يساعده بسخرياته وشكه على تحمل الحياة. وكان چيرونيمو فى هيئـة المجدلية التائبة يتحدث ويتذكر تهكم بيـدرو. وبالقرب من الفـراش المتواضع حـيث يريح المريض جلده وعظامـه. كان خوسيه لوييـز ممسكاً بملعقة دواء كبيرة. كان بيدرو لايزال فى حـالة صحو يحاول أن يحدثهم.

ـ إنكم طيبون! لا أعرف كيف أرد لكم كل هذه الطيبة...

ـ لاتقل ذلك ياتيسيانو، أرجوك...

ـ إنه واجب علينا. إننا مدينون لك بالكثير...

وأخذ چيرونيمو يعدد المحاسن التى أغدقها عليهم بيدروتيسيانو.

قال خوسيه لوييز لبيدرو وهو يناوله الدواء:

ـ هو، غيـر مدين لك بشىء يا تـيسيـانو. وإذا واصلت التأثيـر على هذا الولد ستجعل منه بائساً...

ـ ولكنه، على الأقل، سـيكون مختلفـاً عن جميع الرجـال. وهذا ما أردت أن أفعله. رجل مختلف جدير بالانتماء إلينا.

ـ ليس بالنسبة له. إنه ولد طيب...

ـ طيب جداً. كريم النفس...

ـ لدرجة أننا نغفر له صغر عقله...

ـ المسكين!

سأل بيدرو تيسيانو عن ريكاردو براس. ألم يتلقوا منه خطاباً؟

أجاب باولو:

ـ كلا. ففي سعادته البرجوازية لا يكتب لنا.

وعقب خوسيه لوبيز:

ـ إطلاقاً... لا يكتب لنا لأنه تعس. إن ريكاردو متعجرف جداً. لم نكف عن تكرار أن السعادة ليست هي الحب الذي سوف يشبع منه. وقد حدث. ربما في هذه الساعة يعاني بقسوة. ولكن الغطرسة تمنعه من أن يصارح أصدقاءه... إن ريكاردو لن يعترف أبداً بأنه أخطأ.

أكد تيسيانو بصوت واهٍ:

ـ بالضبط.

ـ مسكين ريكاردو...

ـ وأنت يا باولو، لقد أصبحت عاطفياً منذ مأساتك الغرامية...

ـ فعلاً. واليوم لم يبق لي غيركم يا أصدقائي. وإذا فقدتكم سأكون وحيداً في الحياة ولا أعرف ماذا سيحدث. والحقيقة أنني بدأت فعلاً أفقدكم. خوسيه وچيرونيمو لم أعد أراهما، وتيسيانو مريض، وريكاردو في «بياوي».

ـ لقد أردت أن أعفيكم من منظري البائس...

ـ إية عزة نفس يا خوسيه!

ـ وچيرونيمو يداري غبطته. فهكذا... يجب أن يشقى المرء أو ينعم وحيداً.

ـ لم أعرفك يا خوسيه.

ـ إننى اليوم مخلص يا باولو...

ـ تناقضات، الآن؟

ـ إكراماً لتيسيانو.

ـ آه!

دقت ساعة الحائط، وطلب تيسيانو الدواء:

ـ أنا الذى لم أطع أحداً قط، أرانى مضطراً فى آخر حياتى لأن أطيع ساعة...

* * *

ـ أريد أن أقدمك لحبيبتى.

ـ نعم يا چيرونيمو. لابد أن تتحرر من تيسيانو. إن له تأثيراً عليك. وهو يعتقد أنه يفعل كل ذلك لمصلحتك. وبما أنه أخطأ... يجب أن تطمح إلى السعادة فوق كل شيء. إن تيسيانو الذى يعشق عدم الرضا والألم، كان يريد أن يصنع منك تيسيانو جديدا. كنت ستصبح بائساً إلى الأبد. إن تيسيانو شخص استثنائى، لقد جاء من زمن آخر، إنه لا يشعر بما نشعر به نحن أبناء اليوم من ضرورة البحث عن السعادة وغاية الوجود. إنه يحيا لأنه ولد. لايريد أن يحقق ذاته، ولايريد أن ينتصر.

ـ بل يمكن القول إنه لم يرد...

ـ هذا حقيقى. إنه يموت. تيسيانو العظيم... قليلون من هم مثله فى هذا القرن... ومع ذلك يموتون فى بؤس.

ـ لقد ولد فى البرازيل...

ـ فى بلد الكرنفال هذا، الأقنعة العادية وحـدها التى تسود. لقد كان أسمى منا جميـعـاً. لقد اسـتطاع أن يتـغلب على عدم الرضـا. لم يحاول أن يحل مـشكلة وجوده. بل وضع نفسه فوق الحياة كمتفرج.

ـ ولكننا نحن...

ـ يجب علينا أن نحيا. ونحاول ألا نفشل. نسعى إلى السعادة. وحتى لا تعيش مأساتى ومأساة خوسيه لوييز... عليك أن تكون سعيداً...

ـ سأكون سعيداً ياباولو.

١٤

أخذ السيارة وانطلق بسرعة. لقد هزته هذه المكالمة التليفونية. بيدرو تيسيانو يحتضر. يحيا اللحظات الأخيرة من حياة مثيرة. اتصل ابنه بياولو ريچيه. كانت ساعة الحائط بصوتها الأجش تعلن الحادية عشرة مساء. هبط باولو ريچيه ليوقظ السائق. دفع باب الغرفة. وفى السرير الضيق كان السائق والخادمة مستغرقين فى نوم برئ لأولئك الذين أشبعوا غرائزهم. أيقظهما. أخذا يعتذران فى اضطراب. غطت الخادمة التى اعتراها الخجل وجهها بدلاً من أن تغطى الأعضاء الأخرى من جسدها.

ـ هيا يا آوجستو، لا أهمية لذلك. يمكنكما أن تناما سوياً وقتما تشاءان. الأمر سيان بالنسبة لى. لكن لابد أن أذهب فوراً. اخرج السيارة. كان المطر ينهمر بغزارة. أراد أن يعبر بجملة فخرجت الكلمات ساذجة:

ـ كأن السماء تبكى على رحيل تيسيانو ـ إن باهيا وكتاب البرازيل الضعفاء سيفرحون وقد يقيمون حفلاً...

توقفت السيارة أمام باب چيرونيمو سواريس. طرق الباب. وفى الداخل لم يكن إلا الصمت. طرق الباب ثانية. لا أحد يجيب. وفى النهاية خرج عن شعوره وأخذ يضرب الباب بقبضته متعجلاً أن يصل إلى بيت صديقه الذى يحتضر. ظهر چيرونيمو فى النافذة.

ـ من هناك؟

ـ أنا، باولو ريچيه.

ـ تيسيانو يموت.. هيا بسرعة.

لم يستغرق چيرونيمو وقتاً فى ارتداء البنطلون والچاكتة. وانطلقت السيارة من جديد باتجاه البنسيون حيث يسكن خوسيه لوبيز.

أخذا يهزان الرتاج الضخم كثيراً. ظهرت صاحبة البنسيون. امرأة عجوز، قصيرة. سمينة ـ وهى تضع يديها فى وسطها:

ـ ماذا تريدان؟

ـ نريد أن نتحدث إلى السنيور خوسيه لوبيز.

ـ لم يعد بعد. ولا يجرؤ أن يظهر قبل الفجر. اللص مدين لى بإيجار شهرين. يأتى آخر الليل ويهرب فى الصباح. لا أعرف ماذا يفعل ... لص!

ـ كفى يا سنيورة. مدين لك بكم خوسيه لوبيز؟

ـ كم... إيجار الغرفة شهرين فى مائتى ألف رايس.

ـ سأسددها.

وسحب ريچيه النقود من حافظته. وبدا الرضا على المرأة:

ـ اعذرنى. إنك تفهم...

وأحصت النقود بأمانة:

ـ ولكن هناك زيادة مائتى ألف رايس.

ـ إنها لإيجار شهر مقدماً. لكن لا تقـولى شيئاً لخوسيه. والآن، أين يمكنتى أن أجده؟

ـ لا أعرف ياسنيور. إنه لا يقول أبداً أين يذهب...

ظلا متحيرين. أين يجدان خوسيه لويز؟

ـ ربما يكون الآن عند تيسيانو...

ـ كلا. لقـد أخبرنى ابن تيـسيانو أنه لم يكن هناك، وأنه لا يعـرف أين يجده. وفجأة:

ـ ولكنه يعمل فى ناد للقمار. أتعرف أين يا چيرونيمو؟

وكان چيرونيـمو يعرف النادى. وانطلقت السيارة. صـعدا سلالم طويلة، وفى الطابق الثالث سمعا صيحات السكارى.

ـ لابد أنه هنا.

سألا البـواب الذى أجاب بأن خوسـيه لويز لم يظهـر منذ أيام، وأنه يأتى من حين لآخر إلى النادى ليشرب فقط... وأخذ البواب يتفلسف فى لهجة الخلاسيين البرازيليين:

ـ إنه شخص غريب الأطوار، هذا السيد خوسيه لويز. دائماً يقرأ ويشرب. إن حكايات كثيرة بدأت هكذا. لقد مر بى كثير منها...

لم يكن باولو وچيرونيمو ينصتان له. كانا قد ابتعدا هابطين السلم.

ـ دعك من خوسيه الآن. هيا بنا.

ـ هيا بنا.

انطلقت السيارة بالرجلين فى الشوارع المليئة بالحفر. كانا صامتين فى حزن ثقيل.

* * *

كان بيدرو تيسيانو يحتضر وهو متمالك زمام نفسه بالرغم من بلوغه السبعين.

كان جميلاً فى اللحظات الأخيرة من حياته وقد تركت الحمى آثارها على جلده وعظامه. ومع ذلك. كان وجهه يشع بجمال غريب.

دخل باولو ريچيه منكس الرأس، ضاغطاً شفتيه حتى لايبكى. لقد أحب هذا المدمر الرائع الذى عرف كيف يحيا حياة المعارضة.

أخذ چيرونيمو سواريس يعانق بيدرو...

ـ كيف الحال إذن؟

أجاب المحتضر بصوت رفيع:

ـ جيد. كما ترى.

فى الغرفة، كان المصباح الكهربى الصغير يبث من خلال «الأباچورة» ضوءاً شاحباً. تلفت تيسيانو حوله:

ـ وخوسيه؟

ـ لم نستطع العثور عليه. ولكنه لن يتأخر. ومع ذلك لايزال أمامنا متسع من الوقت لنثرثر... سنين...

ـ دعك من ذلك يا چيرونيمو. أتريد أن تعزينى؟ أعرف أننى سوف أموت.

ولكنى لا أخاف الموت. لقد عشت كثيراً. عرفت الحياة والرجال ـ وأضاف مازحاً:

ـ والنساء أيضاً.

كان ابنه وابنته الصغيرة يبكيان. وكان باولو ريچيه صامتاً والنحيب يحتبس فى حلقه فبدا كعبيط.

كان بيدروتيسيانو يبتسم للموت. كان رائعاً حتى آخر لحظة. كان يموت بنفس الروعة التى عاش بها.

عند رأس السرير. كان باولو ريچيه يتساءل فزعاً كما لو كان هو المحتضر وإذا كان هناك جنة ونار؟ سيدان بيدروتيسيانو. وربما يعانى. وأثارته هذه الفكرة. أنستدعى قساً؟

ومرر يده على شعره وجبهته الملتهبة، واقترب أكثر من تيسيانو، وهمس فى أذنه:

ـ وإذا كانت هناك حياة أخرى يا بيدرو؟

ـ أتريد أن تستدعى قساً ياريچيه؟ لا تفعل ذلك. لستُ مؤمناً. إننى متمسك بما أعرفه وسوف أموت غير مؤمن.

وبذل جهداً لكى يبتسم، وواصل حديثه بصوت واهن:

ـ إذا كانت هناك حياة أخرى، فإننى أفضل الجحيم.

وجاءت اللحظة الأخيرة. امتقع وجه بيدرو تيسيانو فى نوبة ألم.

ـ إننى أموت! إننى أموت!

قفز باولو.

ـ أجبنى يا تيسيانو. ما هو حل المشكلة؟ لأى هدف نحيا؟

ـ نحيا من أجل الحياة. السعادة هى كل مالا نبلغه، إن ما نرغبه.

ـ والسر فى أن نكون مطمئنين؟

ـ ألا نرغب فى شئ. وأن نقلع عن الرغبة تماماً. أن نحيا لكى نموت... سقط منهكًا. بكى چيرونيمو كطفل. وكان ابن تيسيانو قابعاً فى ركن يتأمل المشهد الأليم. رفع المحتضر رأسه بجهد يائس. تلفت حوله ملقياً نظرات الوداع. تمتم فى صوت سحيق، صوت ما وراء الموت:

ـ يالها من نهاية حزينة لمأساتى الكبيرة!

وحاول مرة أخرى أن يبتسم. لكن الألم قاوم فمه. أغمض عينيه. ومات بيدرو تيسيانو. عانق ابنه جثته طويلاً. وأخذ چيرونيمو ينتحب. وبدأت ابنته الصغيرة تردد صلاة لا يحفظها باولو ريچيه، تطلب الخلاص لهذه الروح. كانت الطفلة تردد بصوت عال:

ـ «يا أبانا الذى فى السماء.»

أراد باولو ريچيه أن يصلى معها. لقد مات بيدروتيسيانو ملحداً! خرج من الغرفة قبل أن ينفجر فى النحيب، وبدأ يصلى بطريقة مضحكة مثل ابنة الميت...

* * *

وفى النهاية، وجدا خوسيه لوبيز، عند الفجر، مخموراً فى إحدى الحانات. هزه باولو:

ـ خوسيه ! خوسيه!

ـ ما بك يا باولو؟

استعاد خوسيه لوبيز وعيه عندما نظر إلى هيئة صديقه المنهكة.

ـ لقد قضى بيدروتيسيانو نحبه.

ـ ماذا؟...

قعد خوسيه لوبيز. أخفى وجهه بيديه. وزالت سكرته.

ـ وأنا الذى لم أكن حاضراً...

ـ لقد بحثنا عنك، وكان من المستحيل أن نعثر عليك.

ـ باللشقاء! يا للشقاء!

ـ الآن، ينتظرنا عمل كبير. علينا أن نقوم بعملية الدفن.

ـ فعلاً.

ـ أنت يا خوسيه لوبيز الذى ستتكلم.

ـ لا أحد غيرنا سيذهب إلى الدفن.

ولكن حدث عكس ما توقعوا. حضر الكثيرون عملية الدفن. لقد سرى الخبر بسرعة فى المدينة.

علق باولو ريچيه:

ـ إن الأدباء الضعفاء سوف يطيرون من الفرح. فهاهم قد تخلصوا من عدوهم الأول. وتذكر چيرونيمو أن بيدروتيسيانو كان يعتبر الأدب البرازيلى فرعاً من الأدب البرتغالى. وكان يعلن ذلك، الأمر الذى أثار غضب الأدباء الوطنيين. ولابد أنهم سعداء الآن. وربما من أجل التأكد من موت بيدروتيسيانو ستتابع جميع

الصحف وكل أدباء المدينة عملية دفنه. ولكنهم سوف يندمون. كانت خطبة خوسيه لوبيز عنيفة فضحت كل الأغبياء الذين عارضوا بيدروتيسيانو فى كل شئ الذين تناسوه دوماً، وهاهم الآن يحضرون دفنه من باب النفاق. إن بيدرو لايهمه حضورهم. لم يطلب منهم أن يحضروا ولن يشكرهم على ذلك. قوطعت الخطبة بنحيب البعض. وكان هو يسعل أحياناً، فكان الأدباء يعتقدون أنه لن يتأخر فى اللحاق ببيدروتيسيانو.

ظلوا سوياً على مائدة إحدى الحانات إلى وقت متأخر من الليل، يتذكرون صديقهم الميت.

ـ إن آخر علاقة تربطنى بالحياة قد قطعت. فقدتُ كل شئ. والآن أفقدُ من بقى من أصدقائى.

لم يرد الآخران على خوسيه لوبيز فقد كانا مستغرقين فى صمت ثقيل.

ـ ريكاردو بعيد جداً.

تذكر چيرونيمو:

ـ لابد أن نخطر ريكاردو.

وتعهد باولو ريچيه أن يكتب إلى الغائب.

ـ مسكين ريكاردو! سوف يحزن كثيراً...

ـ سوف نكدر سعادته...

كان «الفونوغراف»، فى أحد الأركان، يبث أحد ألحان السامبا الشهيرة: «حقاً، إنها جميلة هذه الحياة»....

ـ إن الشخص الذى ألف هذه الأغنية مغفل كبير. فهذه الحياة شقاء... أخذوا يتذكرون آخر كلمات تيسيانو.

ـ كنت أقول دوماً: إنه كان يعيش مأساة كبيرة.

ـ الإخلاص للحظة الأخيرة...

ـ أو المزحة الأخيرة؟

ـ لقد توصلتُ اليوم، يا باولو ريچيه، إلى طمأنينة بيدروتيسيانو. لم أعد أرغب فى شئ... سوف أحيا هكذا حتى مماتى...

لم يقل چيرونيمو شيئاً لاعتقاده بأنه وسط هذين الرجلين التعسين سيكون كمن يرتكب جريمة محاولة بلوغ السعادة.

غادروا الحانة. وكان «الفونوغراف» ما يزال يغنى هازئاً:

«حقاً، إنها جميلة هذه الحياة...»

اشتروا الجرائد من صبى يرتجف فى أسماله. أفردت كل الصحف مقالات طويلة عن موت بيدروتيسيانو وكالت له المديح. وخصصت له جريدة «لاستادو دا باهيا» عنواناً كبيراً باللون الأسود. كانت تنعى رحيل «الأديب الكبير الذى أدار الجريدة زمناً فزاد من شهرتها». ثم تابعت «نحن الذين كنا أصدقاءه حتى آخر لحظة، نحن الذين لم نتخل عنه» وختمت بقولها: إننا فى حداد مثل البرازيل كلها التى فقدت واحداً من أبنائها».

ـ كلب جوميز هذا!

ـ اسمع... لقد أرانى ابن تيسيانو اليوم برقيات تعزية من اتحاد الصحافة ومن أكاديمية الآداب...

ـ أنذال! بمجرد أن يموت عدوهم يحتفلون به. لكن قبل ذلك كانوا يقاطعونه خوفاً منه...

وتوعد خوسيه لوبيز:

ـ ولكنني سوف أكتب مقالات عن ذلك... سوف أسحقهم.

وانفضوا، كل إلى بيته.

كـان القـمـر فى السـماء. لايشـبـه امـرأة ذابلـة. كـان مجـرد كـوكـب تابع للأرض.

١٥

كان على الرغم من كل شئ يشعر وكأن شيئاً ينقصه. فمنذ وفاة بيدروتيسيانو كان اقترابه من السعادة التامة يتحقق بسرعة. لقد نسى مزاح صديقه ونصائحه وسخرياته. لقد ألقى عنه مشاكله كشئ لاطائل منه. لقد تخلص بسرعة من عدم رضاه، الذى لم يكن إلا موقفاً فكرياً. تحت تأثير تيسيانو. كان يتذكره كأسطورة، ككائن استثنائى يعذب الآخرين ويفرض وجوده عليهم. تيسيانو الذى كان يعذبه ويلقى الشك فى نفسه ويسيطر عليه بقوة تبجحه وبكل صفاته الغريبة كملحد. وبدأ چيرونيمو سواريس يشعر بنفس الحماسة عندما يمر الجنود فى الشارع فخورين يتغنون بما يسمى النشيد الوطنى. وبدأ من جديد يتذوق الأشياء العادية فى الحياة. أقام علاقات مع جيرانه. وكان يتناقش فى السياسة مع السنيور «بريدو ريديس انطونيس دا انكارنا سانو» الذى كان مستغرقاً فى المطالبة بعودة البلاد إلى النظام الدستورى. وكان يبتسم محيياً الجارة العجوز القصيرة التى تصنع الحلوى لتبيعها فى المدينة. أصبح من جديد الموظف الصغير المثالى كما كان فى السابق، قبل أن يعرف بيدرو تيسيانو.

كان يرتقى إلى السعادة. وفوق ذلك كانت لديه كونشيساو، المومس السابقة، الرقيقة للغاية، تملأ عليه حياته. كانت تحبه كما تحب النساء اللاتى يبعن أجسادهن لحشد من الرجال. إن هؤلاء النساء هن جوهر الحب، وذروة الرقة. كانت كونشيساو تخمن رغباته. كانت تمنحه النعيم اليومى الذى ينعم به الرجال

المطمئنون، والذى يبحث عنه الآخرون كثيراً. فى المساء، كانت تضع رأس جيرونيمو على حجرها وتظل ساعات بأكملها تداعب شعره المجعد. وكانا يمكثان صامتين من فرط السعادة. لم تعد هناك أيام المزاج العكر. نفس الشئ دائما. نفس الطيبة. نفس الابتسامة التى تبوح بتخلصه من عدم الرضا.

كانت روث، زوجة ريكاردو، قد أصابت بقولها إن مسألة عدم الرضا هذه عبارة عن أدب...

واليوم، وإن كان يعطى الحق لروث! أدب كله... فإنه مع ذلك يشعر أن شيئاً ينقصه.

إن سعادته كبيرة ولكن لا يمكن اعتبارها مطلقة. إنه ما يزال يتألم من شئ لا يعرف كنهه. وفى بعض الأحيان، صحيح أنها أحيان قليلة، كان ذلك الشئ يخطر بذهنه فكان يسبب له الاضطراب. إن شيئاً ينقصه...

وفى العمل حيث أصبح الآن يذهب كل يوم فى الموعد المحدد، كان يترك قلمه ويستغرق فى التأمل. الحب، حصل عليه. يتقاضى مرتباً جيداً. المأكل جيد، والفراش مريح. ما الذى ينقصه إذن؟ أيكون شيطان عدم الرضا هو الذى أرهقه؟ أتكون سخريات وتناقضات بيدروتيسيانو هى الحقيقة؟

ـ لا. إن مسألة عدم الرضا والشك هذه تخص باولو وخوسيه لويز. لاتخصنى أنا. إننى برجوازى سعيد بلا ذرة من العقلانية...

ـ ولكن بحق الشيطان ما الذى ينقصنى؟

أيقظه زميله فى المكتب:

ـ هيه، أخى العزيز! أأنت فى القمر؟

ـ لا. إننى أفكر فى أشياء...

ـ تفكر؟ أأنت شاعر؟

ـ ماذا ! أعوذ بالله...

وفى المساء أيضاً كان يتساءل. طالما أنه لم يصل إلى السعادة الكاملة فلن يجد الراحة قط. فالمرء ينتهى بأن يصبح تعساً باجترار المشكلة. فى ذلك الوقت لم يكن چيرونيمو سواريس يرغب فى شئ أو يطمح إلى شئ. ورغبته فى أن يصبح رئيساً للقسم لم تكن طموحاً حقيقياً.

* * *

تمددت «كونشيساو» بجانبه راضية، فاتحة ساقيها فى سكينة من أشبع غرائزه. وسحب چيرونيمو الغطاء فوقه لينام. ولكن آفة المناجاة لم تفارقه، تلك الآفة التى ورثها من معاشرة بيدروتيسيانو. وقبل أن يستسلم للنوم كان قد استغرق فى أفكاره.

إنه فى نهاية الأمر لم يخن أصدقاءه. وتيسيانو نفسه يقول: إنه ليس هناك فضائل أو خطايا، والمسألة ببساطة تنحصر فى كيف يرعى المرء فضائله كخطايا أو كيف يهبط بخطاياه إلى عداد الفضائل. لقد كانت فضائله هى دافعه إلى الرضا، ومع ذلك فقد حاول الآخرون جميعاً بلوغ السعادة وفشلوا، أما هو فقد فاز بها.

كان، فى سذاجته، يعتقد أن المسألة مجرد حظ. فلم يتذكر أبداً عبارة تيسيانو: «إن الحمير والأغبياء هم وحدهم من يبلغون السعادة...»

والأسوأ من ذلك. كان هذا الشئ الذى ينقصه. إذا عثر عليه فسوف يعيش سعيداً بقية حياته. ماعساه يكون ذلك الشئ؟

ـ لاشئ، لاينقصنى شئ. إنما ذلك من بقايا تأثير الأصدقاء.

وبدأ النوم يطبق على جفونه. تكور على نفسه وراح فى النعاس. رأى حلماً غريباً. استعاد فى هذا الحلم الليلة التى عاد فيها ساخطاً من عند تيسيانو وأرغم كونشيساو على أن تنتزع صورة القديس أنطوان من على الحائط، فوق السرير، وأنها بكت كثيراً...

نهض قافزاً. لقد وجد حلاً للمشكلة. فالشئ الذى ينقصه هو الإيمان، الدين، الله.

وأخذ سعيداً يهز كونشيساو:

ـ كونشيساو! استيقظى يا حبيبتى!

فتحت الفتاة عينا مغشاة.

ـ ماذا هناك يا چيرونيمو؟

ـ أتعرفين أنه لابد من الذهاب غداً إلى القداس؟

ـ ها؟

تململت وبحركة تدل على نفاد صبر (يوقظها من النوم ليزعجها) واستدارت إلى الجانب الآخر وواصلت نومها.

ـ ليس أمامى إلا أن أذهب وحدى...

رسم چيرونيمو سواريس إشارة الصليب وغطى رأسه بالملاءة ونام أول نوم هادئ فى حياته...

كان الوكلاء المتجولون الذين غامروا بالوصول حتى هذه المدينة الصغيرة فى قلب «بياوى» قد أصدروا تصريحاً قاطعاً بأنها:

ـ مدينة صغيرة بلا حياة ولانشاط والناس هناك يعيشون فى عزلة.

لقد كانوا فى الحقيقة على صواب، فهذه المدينة نموذج لمدن شمال البرازيل،

تنقصها الحياة. التجارة الصغيرة فى أيدى بعض العرب الماكرين، والصيدلية، التى لا تختلف عن أى صيدلية، فى أى ضاحية برازيلية، هى المكان الوحيد للخطباء: الطبيب والمدرس والقاضى والمحامى والسيد «ليوكاديو» مدير مكتب البريد وكل وجهاء المنطقة. ومتجر الحرير والدكان الذى يعرض فى واجهته لحم الضأن والدجاج، أيام السوق. والشارع الطويل الواسع حيث يوجد مبنى المحافظة وحيث يسكن الطبيب. وميدان المساحة حيث تصطف منازل الصفوة. الرجال البارزون وحدهم يسكنون هناك. هناك أيضاً بضعة شوارع صغيرة ضيقة بها قليل من المساكن وكثير من الخلق. وعلى تخوم المدينة، هناك ثلاثة منازل حيث تسكن قلة من المومسات. لاشئ جديداً على الإطلاق. السينما فى أيام الخميس والسبت والأحد، وفتيات يطرزن الدانتيلا (ما يزال هناك فتيات يطرزن الدانتيلا) جالسات أمام الأبواب. كل الناس يعرفون بعضهم البعض. والحديث عن المستقبل فن.

فن صعب تتفوق فيه دونا «فيليسمينا» زوجة «يوكا» النجار. مدينة حتى الصغار فيها لهم شخصيتهم. قلة من الصبيان وكثرة من الفتيات. رومانسية خالصة تعود إلى عام ١٨٣٠ . قلة من الصبيان فقط من يعرفون النساء ذلك لأن القليل من بينهم قد بلغ تواً الحادية والعشرين، العمر الذى يسمح لهم فيه آباؤهم بأن يفقدوا براءتهم. هذه هى البرازيل فى كامل طهارتها!

وأغنيات «الكوكوس» التى لايزالون يرقصون على أنغامها فى بيوت الأثرياء (ذهبت دونا «ريزوليتا»، ابنة المحافظ، إلى العاصمة لتدرس موسيقى «الكوكوس» ولكنها وجدتها مثيرة للسخرية. كانت تعزف على البيانو موسيقى حديثة همجية، لذلك ثار منها الناس واعتبروها مجنونة...» والقس بهيئته الأبوية يبارك كل

الناس، قس طيب أب لخمسة عشر من الأبناء أصبح بعضهم آباء. بدائية الدين وروعته، الدين المفعم بالخرافة تجعل منه ديناً أفريقياً أكثر منه لاتينياً. اللغط لايكف فى الصيدلية كل يوم، من الثامنة حتى الظهر، ومن الواحدة حتى السادسة مساء. يلعبون الدومينو أمام بابها، يحيط بهم الفضوليون الذين يشجعون اللعبة الحلوة (كان «تيودورو» بطل لعبة الدومينو). والزيجات النادرة للشباب الذى لم يهاجر إلى سان باولو بحثاً عن الثروة والحظ.

قليل من الطرافة والجدة وكثير مما يثير الدهشة. مدينة صغيرة سعيدة حيث الفتيات لا يقرأن «بيتيجريللى» ولا «يعبثن» فى السينما حيث يفكرن فى الزواج. فى هذه المدينة يعتبر «فلوريانو بوكشوتو» (١) بطلاً معبوداً حيث يعتقد الناس أن انجلترا تخشى البرازيل «عندما تقع الحرب مع الأرجنتين...» ـ ويترك الكابتن تيودورو الدومينو ويصف مآثر المستقبل). عندما لايصاب الشبان بالسيلان وتبلغ المومسات قداسة لاتمس. وهناك أيضاً، وهو شئ لايصدق، هناك الحب فى هذه المدينة. حب نقى بلا شهوات. (حيث يحب المرء دون أن تخامره الأفكار الدنسة: هذه هى الوسيلة الناجعة لمعرفة إذا ما كان المرء يحب حقاً، وفقاً لرأى شباب المنطقة...)

ـ بركتك ياسيدى القس...

ـ ليباركك الله يا ولدى.

وفى وسط الشارع. يمد شاب فى حوالى الثامنة عشرة يده ليتلقى بكل احترام بركات ممثل السماء. شاعرية لذيذة مضحكة لمناطق البرازيل الداخلية. وفى قلب ذلك، أغلقت صحيفة «القرنفل» بسبب انعدام الأخبار والمحررين... ولكن فى

(١) سياسى وماريشال برازيلى، ولد فى ماشايو (١٨٤٢ ـ ١٨٩٥)، أحد زعماء ثورة ١٨٨٩ (المترجم)

أيام العيد القومى تموج المدينة بالحركة. تزدان بأعواد البامبو والأعلام ذات اللونين الأخضر والأصفر، وتعزف الفرقة الموسيقية فى السقيفة بميدان المساحة ألحاناً وطنية، فخورة بإتقانها ـ إنها أفضل فرقة موسيقية فى المدن وضواحى الولاية. فى العاصمة فرق قليلة التى باستطاعتها أن تنافسها. ورغما عنه كان «يوكا» النجار الذى يجيد عدة صنائع من بينها وظيفة المايسترو «لا يعرف (كلا)»... ولايشارك فى إحراز نصر فى أى من جوقات العاصمة إذا كان هناك تحد...

وفى السوق الخيرية، كان بعض الأتراك يلتقطون صوراً فورية، وشبان يتحدثون مع خطيباتهم.

فى يوم العيد الكبير هذا قام المحافظ المحترم (محترم لدرجة أن الثورة لم تنجح فى خلعه فقامت فقط بتغيير اسمه إلى «مشرف») بالاشتراك مع الكابتن تيودورو بتنظيم برنامج احتفالى خارج عن المألوف. فى الثالثة بعد الظهر تحدث سيادة القاضى من سقيفة الميدان، وفى المساء عقد النائب العام مؤتمراً عن «العيد الوطنى».

النائب العام هو ريكاردو براس. كان قد حاز شهرة كخطيب مفوه ببعض الخطب التى ألقاها فى مناسبات احتفالية مثل هذه المناسبة. وفى الاحتفالات كان يلقى أشعاراً من نظمه كانت تنال إعجاب الآنسات وتثير غيرة دونا روث. بل لقد أعاد ريكاردو الحياة لصحيفة «القرنفل». أحب اسم الصحيفة: «القرنفل»، فالقرنفل مثل المسمار باستطاعته أن يثقب ويخترق، وكعود قرنفل يمكنه أن يبهج ويعطر.

اسم مناسب، غنى بالمعانى. كانت أعمال ريكاردو قليلة. لم يكن هناك إلا عدد قليل من المتهمين. فكان يربى الطيور، ويثرثر فى الصيدلية. يحب زوجته. وكان يشعر فى قرارة نفسه بالشقاء التام. لم يخلق لهذه الحياة. كان نفس الشئ يعذبه: افتقاره إلى شئ غير متوقع. لقد كان أصدقاؤه على حق: ها هو لم يجد

السعادة فى الزواج. فشلت تجربته. وتحول حبه إلى عادة. قُبلة الصباح، والوجبات المقترحة خلال اليوم. والمناقشات من أجل الغداء، وفى المساء وهما فى السرير، كانت روث كما هى لاتتغير أبداً. لم تعطه أبداً إحساساً جديداً، ولم تقل له أشياء مسلية. إنه يحبها بطريقة برازيلية، برجوازية للغاية، جديرة بامرأة متزوجة، بلا نزوات أو نقائص. كان الهدوء الذى يعيشان فى كنفه يعذب ريكاردو براس. بالقطع لم يخلق هو لذلك. تفاهة هذه الحياة ـ الأكل والنوم وإلقاء خطبة هنا أو هناك والتحدث إلى أناس جهلاء... لقد فشل... عدم الرضا الذى ظن أنه قهره. يسيطر عليه تماماً. واستولى عليه الإحباط. كان يقضى أياماً صامتاً، يقرأ الكتب القليلة التى أحضرها من «باهيا». وكانت «روث» ترى أنه «تغير».

ـ إنك فى حاجة يا حبيبى الصغير لأن تفقد جنون الأدب...

ـ أعرف ذلك.

كان يحب أن يتجول فى الأراضى المجاورة ويفكر. لقد دفن حياته. فى يوم من الأيام سيصبح قاضياً. ولن يتجاوز هذه المرتبة، سيكون قاضياً محترماً بقية حياته، لقد كان من الأفضل كثيراً أن يبقى فى «باهيا» مع أصدقائه، يعانى معهم المأساة التى تعذبهم.

أكثر من مرة، كان يبدأ فى كتابة رسائل إلى باولو ريجيه وخوسيه لوبيز ولكن الغرور كان يمنعه من إرسالها إليهم. لم يكن يبوح بتعاسته لأحد... لقد فشل...

ـ السعادة لاينالها إلا المغفلون والأغبياء...

كم هو على حق بيدرو تيسيانو! كان ريكاردو يحتج، وكان يؤكد أن معنى الوجود يكمن فى الحب. وبرهن على ذلك فتزوج، وأحب زوجته التى تنتظر طفلاً. لقد حقق كسباً نسبياً ولكنه تعس للغاية.

كان يظن أن الهناء اليومي في متناول الرجال الأذكياء...

* * *

كان ميدان المساحة يعج بالناس. كل الناس فى أبهى ثيابهم. وكان هناك صار للحلوى [1]، ولعبة القدور المكسورة، وسباق الأجولة [2]، وخطبة سيادة القاضى. وفى المساء المؤتمر الذى طال انتظار ريكاردو براس له.

ـ إنه متحدث جيد. النائب العام...

ـ سيلقى قصيدة «صغيرتى، إن هذه لمعجزة»... وسوف يحاكى:

«عندما تمرين أيتها الأميرة...»

كانت جماعة من الناس تثرثر فى صخب، وكان ريكاردو جالساً بجانب زوجته مستغرقاً فى أفكاره. لم ير القاضى الذى أقبل عليه بلا كلفة:

ـ مرحباً يا ريكاردو!

ـ أوه. دكتور فاوستينو! لم يبق إذن إلا وقت قليل لنسمع خطبتك...

ـ سوف ترى. خطبة رائعة. لايوجد هنا سواك والطبيب، أنتما فقط ستفهماننى أما الباقون فجهلاء...

طالب الحاضرون سيادة القاضى أن يلقى خطبته. انطلقت الفرقة الموسيقية تعزف النشيد الوطنى. تقدم القاضى منتصباً، فى معطفه الفراك القديم وشعيرات قليلة بيضاء تهفهف فوق صلعته مشيراً بذراعه. وبدأ الخطبة:

---

(١) صارى يعلق فى أعلاه حلوى، ولايمكن الحصول عليها إلا بتسلق الصارى. (المترجم)

(٢) سباق يقوم فيه المتسابقون بالقفز، وقد وضع كل منهم نفسه داخل جوال. (المترجم)

ـ أيها البرازيليون...

ارتجل الخطبة التي حفظها عن ظهر قلب في الليلة السابقة. استرجع «الماضي المجيد للمدفع» (مدفع قديم، عديم الجدوى، من أيام الحرب مع الباراجواي، من بقايا ثروة المدينة) وختم بأن قبل العلم في وجد:

ـ وطني الأم! وطني الأم!

وانطلق التصفيق والتهليل والعناق والتهاني والتحيات.

ـ خطبة رائعة!

ـ حتى زوجة المحافظ بكت.

اقترح الكابتن تنظيم جيش احتياطي. سيكون ذلك رائعاً. عندما تقع الحرب مع الأرجنتين...

أراد القاضي أن يعرف رأي «زميله» ريكاردو براس في الخطبة.

ـ لقد أعجبتني كثيراً. كانت رائعة جداً...

حاول الأطفال أن يتسلقوا صاري الحلوى سعياً وراء ورقة نقدية من فئة الخمسة آلاف رايس كانت تتأرجح فوق القمة. ومن قدر مكسورخرجت قطة مذعورة وهربت يلاحقها الأطفال المشاكسون. كان ريكاردو براس يراقب كل ذلك بضيق شديد. لقد دفن حياته...

ـ لماذا لاتذهب وتتحدث مع المحافظ والقاضي؟ إنك هنا مثل الدب...

كانت روث تستغرب مسلك زوجها.

اتجه ريكاردو نحو الجماعة. كانوا يتحدثون عن تكوين الجيش الاحتياطى.

ـ ليكن سيادة النائب العام هو الرئيس.

ـ شكراً. الرئيس يجب أن يكون سيادة المحافظ.

ـ وسيادة القاضى، السكرتير.

والطبيب سيكون أمين الصندوق.

ـ والدكتور ريكاردو. الخطيب...

ـ موافقة.

اقترب السيد «ليوكاديو» مدير مكتب البريد:

ـ دكتور ريكاردو. بالأمس وصل خطاب لك، ها هو.

خطاب من باولو ريجيه. كان متلهفاً على أخبار من أصدقائه. وها هى جاءته.

لكن عليه أن ينتظر كثيراً، فبعد نـهاية الاحتفال، هناك المباركة، وموعظة القس عن عفة...

أغلق على نفسه الغـرفة. عندما أتم قراءة الخطاب تساقطت الدمـوع من عينيه وبللت المرافعة التى كتبها منذ أيام. لقد مات بيدرو تيسيانو... مات وهو يؤكد أن السعـادة هى ألا نرغب فى شئ... أما هـو، ريكاردو براس الذى رغب كثـيراً... الحيـاة من أجل الحياة... وهو أراد الحيـاة من أجل الحب... تعس... تعس... ترك رأسـه تسـقط فوق المنضـدة فى حـركـة إحبـاط كـامل. واسـتولى الأعـيـاء على أعضـائه...

ـ لا يبلغ السعادة إلا المغفلون والأغبياء...

ـ كل نصر فى الحياة فشل فى الفن.

وأخذ صوت بيدرو تيسياتو يرن فى أذنيه. وأخذ يتراءى له شبح صديقه، طويلاً ضامراً فى لباسه الأسود دوماً، متشككا ينطق بالمفارقات...

ـ أن نصل إلى أقصى درجات الإنكار للرغبة...

ويكى ريكاردو براس على فشله.

سمع طرقاً على الباب. لم يجب. طرق الباب من جديد.

ـ من؟

ـ أنا، روث...

ـ ماذا هناك؟

ـ أتريد أن تجعل المحافظ والقاضى ينتظران؟ لقد حان وقت المؤتمر. هيا.

وحاز ريكاردو براس. فى ذلك المساء، نصراً هائلاً، بخطبته الوطنية...

بعد ذلك. كان الضجر...

نفس الشئ دائماً.

الأرض تدور حول الشمس ٣٦٥ يوماً

يوم ويوم آخر.

الأرض تدور حول نفسها فى ٢٤ ساعة.

النهار والليل.

دائماً نفس الشئ.

نفس المأساة: مأساة الرتابة...

١٦

كان التغير الذى طرأ على خوسيه لوييز سريعاً. لقد اختفى منذ شهر، ولم تفلح المحاولات التى بذلها باولو ريچيه فى العثور عليه. لقد تبخر خوسيه لوييز. كان نادى القمار قد أغلق. وصاحبة البنسيون ليس لديها معلومات. وفى ظهيرة اليوم الذى قرر فيه باولو ريچيه الكف عن البحث عنه قابله خارجاً من عيادة طبيب. كان متأنقاً تبدو عليه الطمأنينة.

جرى وراءه فقلب كمية من علب الهدايا كان رب أسرة محترما يحملها بعناية فائقة إلى منزله.

ـ هالو، خوسيه!

استدار خوسيه لوييز وعانق باولو ريچيه بحرارة.

ـ كنت على وشك أن أذهب لرؤيتك.

ـ لقد اختفيت، لقد انهكتُ قدمى فى البحث عنك...

أخذ باولو ريچيه يتأمل صديقه. وجهه هادئ وابتسامة على شفتيه، أيكون قد عثر على غاية الحياة؟

ـ إنك شخص آخر... تغيرت تماماً... هادئ...

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ أعاشق أنت؟

ـ لا، لحسن الحظ.

ـ ماذا إذن، بحق الشيطان، وقع لك، لتصبح هكذا؟... هل تذكر ذلك الإعلان الذى لم أعد أذكر عن أى دواء كان؟؛ «فى البدء كنت هكذا» مع صورة لرجل مريض نوعاً؛ «وأصبحت هكذا» مع صورة الرجل وقد أصبح جلداً على عظم. «واليوم فإننى هكذا» ويصبح الرجل سميناً وقوياً. إنك حققت معجزة الإعلان. عندما عرفتك كنت مريضاً نوعاً. بعد ذلك ساءت حالتك بشكل كبير. واليوم، أنت معافى تماماً...

كان خوسيه لوبيز ينصت مبتسماً.

ـ أى دواء ذلك الذى شفاك؟

ـ أنذهب إلى الحانة؟ هناك نكون على راحتنا ونثرثر.

ـ هيا بنا.

كانت الحانة مزدحمة! الراديو يذيع مباراة فى كرة القدم. ونساء متقصعات كن يوزعن الابتسامات. ورجال جادون يشربون فى صمت، فى تلك البهجة الهادئة التى تسببها أكثر الفضائل قدسية: الحماقة.

جلسا إلى مائدة فى ركن منعزل. لم يعد باولو ريچيه نفس الشاب الأنيق مثلما كان عند عودته من أوربا. أصبح قليل الاهتمام بملبسه، مفعماً بالمشاكل التى كانت كلها ذاتية. ومع ذلك فالنساء تنظر إليه . الدكتور باولو ريچيه أليس هو صاحب المزارع الكبيرة؟

ـ أهى الفلسفة...؟

ـ نعم...

ـ أتذكر بيدرو تيسيانو يا خوسيه لوييز؟ كان يقول: إن المرء يحيا من أجل الحياة، وأنه لن يجد السكينة مهما كانت نسبية إلا بالكف عن الرغبة. أن يصبح لا مبالياً... ألا يرغب فى شئ... مثل بوذا، توصل تيسيانو إلى هذا الكمال. أما نحن رجال هذا القرن فلن نقدس الشك كما فعل. سنحاربه ونحارب بيدرو تيسيانو. لقد حاولنا أن نكتشف معنى الوجود؛ الغاية التى من أجلها نحيا؛ السعادة إن أردت الدقة. وأنت. كنت تقول: إنها تكمن فى الحقيقة الفلسفية، وريكاردو براس يقول إن الحب المبنى على العاطفة هو وحده الذى بإمكانه أن يقودنا إلى مرفأ الأمان. لأن معنى الحياة يكمن فى الأشياء الطبيعية وحدها... كنت أفكر مثله وبحثت عن السعادة فى الغريزة. لقد فشلنا. لا أتحدث عن جيرونيمو فهو لأنه تافه ليس من هؤلاء الرجال الذين يعذبهم عدم الرضا. وعدم رضاهم ليس إلا انعكاساً لعدم رضانا.

ـ نعم...

ـ لقد فشلنا، وأنت قلت لى، يوم وفاة تيسيانو، إنك لم تعد تنتظر شيئاً من الفلسفة... وإنك تخليت عن...

ـ من حق المرء أن يصاب بالإحباط أحياناً.

ـ قلت لى إنك لا ترغب فى شئ، وإن بيدرو تيسيانو بشكوكه التى ترجع إلى ماقبل الحرب. كان على حق، وإن الحقيقة هى الشك وإنك مؤيد لرأيه...

ـ أكرر لك أنها كانت لحظة إحباط، ولكنى لم أتخل أبداً عن البحث فى الفلسفة عن قوة تقهر عدم الرضا. لحل المشكلة...

ـ وهل وجدتها؟

ـ لقد وجدتها. إن الثقافة الفلسفية تكفى لتجعلنا فى سكينة...

ـ إن السكينة هى تزييف...

ـ ... تزييف السعادة، أعرف. ولكن السعادة المطلقة لا وجود لها. ولا حتى بالنسبة للحمير. ولا حتى بالنسبة للحيوانات. فما بالك بنا نحن البشر! فلابد من السكينة. السكينة التى لم يمنحها الزواج لريكاردو براس، وأبت الغريزة أن تمنحك إياها...

ـ ولكن هذا ما بلغه بيدرو تيسيانو بالشك.

ـ أى بمبدأ فلسفى.

ـ مبدأ ألا يكون للمرء فلسفة...

ـ وهذا أيضاً موقف فلسفى...

ـ وهذا هو الموقف الذى تبنيته أنت؟

ـ كلا.

ـ إننى لا أفهم إذن كيف يمكنك أن تكون فى سكينة. من يمتلك الحقيقة؟ أنت أم بيدرو تيسيانو؟

ـ أتبحث عن هذه الحقيقة القديمة جداً التى ظلت لقرون طوال فى قاع بئر؟ هذه الحقيقة يا صديقى تقبع هنالك. وكما قال تيسيانو، لن أذهب لأخرجها من هناك. سأترك هذه المهمة المضحكة للآخرين...

ـ لم أعد أفهم...

ـ لأن الحقيقة شئ نسبى. ولابد من حقيقة خاصة بكل إنسان. وهذا ما يمنح السكينة لكل فرد فتكون له بمثابة الحقيقة المطلقة...

ـ معنى ذلك أن أى نظام فلسفى يحل مشكلة شكوكنا؟

ـ نعم.

ـ شئ عجيب!

ـ إنها مسألة عواطف... إنك فى حاجة إلى الله، لذلك لجأت إلى «التومائية». إنك فى سكينة. والحقيقة الفلسفية للتومائية بالنسبة لك هى الحقيقة الكبرى...

ـ أأنت تومائى؟ لقد كنت دائماً تقول لى...

ـ كلا. لقد وصلت إلى الطرف النقيض. إننى مادى...

ـ وحاجتك إلى الإيمان؟

ـ بدلاً من الإيمان بالله أؤمن بالإنسانية. أريد سعادتها...

ـ إذن أنت...

ـ ... شيوعى...

ـ مستحيل...

ـ هذه هى الحقيقة.

ـ ولكن للشيوعية عيوبا لاتحصى يا خوسيه.

اتخذ خوسيه لوبيز هيئة جادة، كمحام يستعد للمرافعة. فانفجر باولو ريجيه فى الضحك.

ـ إنك تسخر منى...

ـ لا أقدر على ذلك...

ـ إذن أتحب الإنسانية كلها؟

ـ كما فعل المسيح... وبوذا أيضاً... أما بالنسبة لعيوب الشيوعية فمزاياها تغلب عليها...

ـ ولكنك تتساوى مع كل المغفلين...

ـ فى اللحظة الراهنة كلهم أسمى منى...

والأسرة؟

ـ ليست لى أسرة وأنت تعرف تماماً. وتابع قوله:

ـ ومع ذلك. لابد من التخلص من الأحكام المسبقة للشعب، لابد من هدم الكنائس والمُثل، لابد من قطع الرؤوس. وحكومة النخبة؟

ـ نخبة البحارة...

ـ إن نخبة اليوم هى نخبة الأميين والمغفلين...

ـ أتؤمن بالانسانية؟ وبعواطفها النبيلة؟

ـ أوه، كلا! أؤمن بالعواطف لا بما يسمونه بفجاجة العواطف النبيلة.

سوف نرعى العواطف الدنيئة ونهذبها.

ـ والحركة الروحانية؟

ـ مجرد رد فعل...

ـ إننى مع الوقت، أشعر بحاجة قوية للإيمان...

ـ ذلك لايعنى أنك تشعر بالحاجة إلى الإيمـان بكائن أسمى. فلتؤمن بالإنسان وبالأشياء المادية. تذكر أننى كنت أفكر مثلك...

ـ أتريد أن تحولنى عن إيمانى؟ لن أكـون شيوعياً جـيداً. إننى أحب التأنق فى الملبس.

ـ إنك غنى، ولا أسعى لأن أحولك عن إيمانك. إنك برجوازى كبير، وعليك أن تحاربنا...

ـ أنا؟ كلا. فليتحول العالم. لقد أصبحت فى غاية الشقاء... إننى مثال واضح لجيلى. الجيل الذى يعانى والذى شهد الديموقراطية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وشهد ميـلاد الشيوعيـة. جيل عبارة عن همـزة وصل. جيل المعاناة. لقـد ضعتُ فى ليل الشك وهأنذا أغوص فيه رويداً رويداً. أيدٍ خفـية تخنقنى. إننى فى نهاية الأمر فى حاجة إلى أى شئ مهما يكن...

ـ إننى أفهمك تماماً.

ـ وأشعـر أن سكينة بيدرو تيسيانو التى هى سكينتك لا تكفـينى. ربما أطفالى الصـغار وحدهـم هم من سيـحلون المشكلة. كل الجيل الـذى خاض صراعـاً هو الجيل الذى يعانى. لقد خضنا صراعاً ضد الشك...

كان الراديو يصرخ بمعـجزات إحدى القديسات التى ظـهرت فى مدينة بداخل ولاية «ميناس چيرايس».

ـ إن هذا الشعب التقى لن يقبل أبداً نظامك السياسى.

ـ إن هذه التقوى تساعد.

ـ إننا، برازيليـو اليوم. نشـعـر فى داخلنا بمليون نقيـصة. إننا نعـانى من أجل أجدادنا ومن أجل أحفادنا...

ـ الحل هو...

السكينة من جديد؟ إنه متوتر الأعصاب فى الآونة الأخيرة. سوف يعالج نفسه فى أوربا. سيقرأ كثيراً. ربما تكون الفلسفة...

ـ تفاهات...

احتجت أمه. لقد وصل بالأمس... لقد رتب كل شئ. وهى ستذهب أيضاً لتشاهد العالم القديم. أمضى النهار يصف لها العجائب. واقتنعت. اتفقا أن يذهب إلى ريو لشراء الحاجيات الضرورية وعندما تمر السفينة بباهيا تصعد هى. وفى ريو شعر باولو بهدوء أكبر. فى زحام هذه المدينة الرائعة، لم يعد يتذكر مأساته الغرامية. كانت ماريا ديه لورديس قد خبت داخل عقله. وبقى له الشك فى كل شئ. وعدم الرضا المعتاد، ووسواس من شئ مجهول... قرأ الصحف، شباب يؤسسون كتائب فاشستية، والحزب الشيوعى يزداد صعوداً. الماديون والكاثوليك يناقشون قرارات الحكومة بشأن التعليم. كان السخط يفوح من أعمدة الجرائد، وكان الشك يلقى بظلاله على وجوه الشباب.

ـ أعتقد أن مصيبة كبيرة سوف تقع...

أعلنت الصحف اليومية أن الشعب يسارع إلى داخل ولاية «ميناس چيرايس» حيث تقوم إحدى القديسات بشفاء المرضى. أما أخبار الحوادث فقد قرأ تفاصيلها باستمتاع.

واستولت على باولو ريچيه رغبته فى أن يخنق الجميع. لماذا لايجدون السعادة؟ لماذا لاينسوا مشاكلهم؟ أليسوا طيبين؟ لقد أراد أن يكون طيباً، وأن يساعدهم جميعاً. ولم يستطع. كره أشباهه. لن يغفر لهم غباءهم...

ـ لقد خضتُ مغامرة السعادة... يادون كيخوته المسكين!

* * *

ـ فى أى يوم تريد أن تسافر يا سيدى... الأحد، يوم الكرنفال...

أسف الحمال الزنجي. لم يسمعه فقد كان منغلقاً على ذاته. مكتئباً. هبط ونادى تاكسياً.

ـ أوصلني إلى الميناء.

ـ في أي ساعة تريد أن تكون هناك ياسنيور؟

ـ خلال أربعين دقيقة.

أعلن السائق:

ـ مستحيل. في يوم كرنفال نستغرق ساعات وساعات في عبور الشارع.

ـ أوصلني إلى حيث تستطيع، وسوف أكمل الطريق مشياً...

هبط من السيارة وأخذ يتجنب الزحام الرهيب. كان الناس يرقصون السامبا في الشارع وكان باولو ريچيه، وقد اعتصر قبعته في يده، وتشعث شعره والغضب يقدح من عينيه، يحاول أن يشق لنفسه طريقاً، دفعاً بالقبضات والمناكب.

ـ ابتعدوا أنتم بحق الشيطان!

ـ هيه، أيها الأبيض، أنرقص السامبا...

وجذبته الخلاسية. والتصقت به بشهوانية.

ـ اتركيني أيتها الزنجية!

وانتزع نفسه من هناك مخترقاً كتلة الزحام.

ـ في نهاية الأمر، قد يكون هذا الشعب على حق. ربما يكمن كل شئ في الكرنفال...

ـ يا لأناقة ملابسك!...

ورشت عليه الفتاة فى هستيريا من زجاجة عطرها.

ـ فلتذهبى إلى الجحيم!

وبدا من جديد تعساً. عندما وصل من أوربا وكله غـريزة كان قد عرف مفاتن الجسد. واليوم يسيطر عليه الشك فقط...

لحق بالسـفينة فى آخر لحـظة. الركاب قليلون، انجليـز وأرجنتينيـون يعشـقون المدينة التى كسـتـها الظلال. الليل يسـود ريوديه چانيرو. كـان باولو ريچيـه على سطح السفـينة يقارن المدينة الكرنفالـية الغارقة فى الظـلام بروحه. وفجأة، انتـشر الضوء فى المدينة التى بدت ساطعـة، خارجة من الظلمات. وابتعـدت السفينة فى هدوء...

كان باولو ريچـيه عصبيـاً يضغط على شفتـيه وهو يشاهد أمامـه، على جزيرة «كوركوفادو» تمثـالاً للمسيح فارداً ذراعيه وكـأنه يبارك المدينة الوثنية. وزاد الحزن فى عـينى باولو ريچيـه. رفع ذراعيـه فى حركـة تنم عن منتهى اليـأس وتمتم وهو يرمق التمثال الهائل:

ـ يا سيـد، أريد أن أكون طيباً! يا سـيد أريد أن أكون مطمئناً... وعلى الـبعد كانت تختفى بلاد الكرنفال.

ريو، ١٩٣٠

انتهى

ـ انتحار عام...

صمت باولو ريچيه منهكًا. ومن جبهته العريضة كـان يسيل عرق بارد. وكان خوسيه لوبيز حزيناً، تضيع نظرته الشاردة فى عمق الحانة.

ـ هذه الحياة...

عانق باولو ريچيه، فعليه أن يذهب إلى منزل صديق، إسكافى. وباح لصديقه هامساً فى أذنه:

ـ لابد أن نجد مبدأ، مثلاً أعلى، أن نوهم أنفسنا على الأقل. إننى أوهم نفسى بمسألة الشيوعية هذه، لذلك هربت منك. إنك تواجهنى بالواقع، وتثقلنى بالأحزان. إننى الآن أعالج نفسى من السل الذى يترصدنى... أرأيت... لقد أصبحتُ عاقلاً... وقد أصبح غبياً...

تابعه باولو ريچيه بنظره حتى نهاية الشارع.

تمتم فى صوت مأساوى:

ـ التعس...

جرع كأس الكونياك.

ـ التعس...

* * *

قرر أن يعاود الرحيل إلى أوربا. عندما عاد إلى البرازيل، أنيقاً، متشككاً. مُدمراً، مفعماً بالأحلام كان يعتقد أنه حقق شيئاً ذا بال. سوف يصبح كاتباً معروفاً وسياسياً بارزاً. لقد فشل... كان فقط غير راض، تعساً، بعد أن تعرض لمأساة غرامية وحاول الانتحار. سيعود إلى باريس لكى ينسى. من يعرف إذا كان سيجد

إن «بلاد الكرنفال» التى صدرت فى البرازيل فى ١٩٣١ ظلت حتى وقت قريب لايمكن قراءتها إلا بالبرتغالية حسب رغبة مؤلفها. فى ١٩٨٤ فقط، وتحت إلحاح الأستاذة «لوتشانا ستيجانو بيتشو» وافق چورچى آمادو، وبصفة استثنائية، أن تظهر الرواية فى ايطاليا فى طبعة خاصة بمناسبة عيد ميلاده. بعد ذلك كان طبيعياً أن يصرح للسيدة «آليس ريّار» أن تترجم الرواية إلى الفرنسية فصدرت عن دار جاليمار فى باريس فى ١٩٩٠ وهى التى نقدمها هنا.

فى هذه الرواية التى كتبها فى سن الثامنة عشرة يضع آمادو يده على موطن الداء فى البرازيل: البحث عن الهوية. ليس فى السياسة فحسب بل فى الاقتصاد والأدب وأساليب الحكم وكل نواحى الحياة.

أليست هى المعضلة فى كل بلاد العالم الثالث تقريباً؟ وهكذا تكون هذه الرواية التى كتبت منذ أكثر من ستين عاماً صالحة للقراءة اليوم وغداً، بأبعادها الإنسانية وتخطيها لحواجز التاريخ والجغرافيا معاً.

«المترجم»